ظاهرة التمدن في الحضارة الإسلامية

سمير الشيخ علي*

مقدمة:

تُعد ظاهرة التمدن في الحضارة الإسلامية، من الظواهر التي شغلت الفكر الغربي بوقت مبكر، وأثارت هذه الظاهرة اتجاهات متعددة في الاستشراق الغربي.وإذا كانت بعض هذه الاتجاهات قد أنصفت الحضارة الإسلامية بإقرارها بأن الاسلام دين المدنية والحضارة، فإن اتجاهات أخرى اعتمدت مقاييس الحضارة الغربية في فهم ظاهرة التمدن الإسلامي، متجاهلة الأسبقية التاريخية للتمدن الإسلامي على التمدن الغربي، وأنكرت الدور الحضاري للعلوم والحضارة الإسلامية، الذي ترك أثره المباشر في نهضة أوربا وانتقالها من عصر الظلمات إلى عصر التنوير.وذهب فريق من المستشرقين إلى تشويه متعمد للحقائق، واجتزاء وقائع لا صحة لها، مثل اعتبار الدين الإسلامي سبباً لظواهر الاستبداد وإنكار الحقوق المدنية في الملكية وحرية العمل والتجارة، ونفي صفة المدنية عن الحضارة الإسلامية.

لكن في حقيقة الأمر أن جزءاً من المشكلة يعود إلى اختلاف دلالات المفاهيم والمصطلحات الأساسية (الحضارة، المدنية، الثقافة..الخ) والتداخل بين هذه المفاهيم، لذلك لا بد من تحديد المفاهيم والمصطلحات، قبل الشروع بتناول هذه الظواهر، وإعادة تأصيل الإشكالية ووضعها في إطارها الصحيح.ولا بد من اعتماد مقاييس ومؤشرات نوعية وكمية في قياس ظاهرة التمدن الإسلامي، فالمسألة في أبعادها المعرفية ليست مسألة مصطلحات ودلالات لغوية فحسب، بل أن التمدن ظاهرة سيسيولوجية واقتصادية وثقافية متعددة الأبعاد ، وقد قدمنا في هذا البحث فصلاً تمهيداً لإيضاح المفاهيم والمصطلحات، وبيان إشكالية هذه المفاهيم في الحضارة الغربية وترجمة هذه المفاهيم إلى الادبيات العربية الحديثة، ثم عرضنا رؤية هذه الإشكالية في فكر عصر الأنوار وعلم

* د.أستاذ في قسم علم الاجتماع/القسم العربي/ جامعة ماردين ارتقلو

الاجتماع، وانتقلنا في الفصل الثالث إلى عرض جوانب الإشكالية في فكر الاستشراق، قبل أن ننتقل في الفصل الرابع إلى عرض مختصر لاختبار هذه الآراء في الحضارة الإسلامية باستخدام بعض المؤشرات الكمية والنوعية.

أولاً-المفاهيم والمصطلحات:Concepts and terminology

تُعد مفاهيم (الحضارة-المدنية -الثقافة-التحضر) من بين المفاهيم التي تثير جدلاً كبيراً بين الباحثين، ومن الواضح أن الدلالات اللغوية وإن كانت مهمة في تبيان هذه الفوارق، لكنها لا تكفي في إيضاح سبب هذا التداخل بين المفاهيم الاصطلاحية، فالمفاهيم الاصطلاحية مفاهيم دلالة لها تاريخ في كل ثقافة، يتفق أو يختلف المفكرون في تداولها، وهذا الأمر بيّن وواضح في استخدام الفكر الغربي لهذه المفاهيم، بدلالات متباينة أو متشابهة، حسب الفترة التاريخية، وأن كان البحث في معاني المصطلحات في اللغة العربية، وتطور استخدام دلالات مفاهيم(الحضارة والمدنية والثقافة والتمدن) هو أيضاً موضوع إشكالي ، من حيث تداول المفكرون لهذه المفاهيم، لأصلها في اللغة العربية أو في المؤلفات الإسلامية، أو كترجمة للمعاني من اللغات اللاتينية أو من أعمال المفكرين الغربيين، لكننا هنا سنكتفي بالتركيز على انعكاس هذه المفاهيم في الثقافة الغربية، ومحاولة استخدامها في فهم الحضارة و المدنّية الإسلامية.

1-الحضارة :يعد مفهوم الحضارة (Civilization)،في الفكر الغربي مفهوماً متماهياً مع معنى المدنّية في اللغة اللاتينية (Civilities) ، وكلمة (civic) أي ساكن المدينة، مشتقة من مشتق من مفهوم city المدينة، وقد اشتق منه مفهوم المواطن Citizen لتمييزه في المدن عن غيره من العبيد والغرباء المحرومين من حق المواطنة في المدينة الرومانية.ويعتقد دي ميرابو أن مفهوم Civilization بمعنى الحضارة، لم يتم تداوله في الفكر الغربي قبل مطلع القرن الثامن عشر، حين عرفه في كتابه (مقال في الحضارة) :بالنظر إلى الانسان فإن معنى الحضارة هي رقة طباع شعب ما ، وعمرانه ومعارفه العلمية العامة([1]).ويبدو أن معنى الحضارة في الذهنية الأوربية ظهر في القرن الثامن عشر للدلالة على التقدم المادي للحضارة الغربية([2]) وبهذا الخصوص يقول جان كازنوف Jean

[1]- عارف,نصر محمد, الحضارة – الثقافة – المدنية: دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم, المعهد العالمي للفكر الإسلامي,هيرندن,1994,ص33-135

[2]-Madeline Grawitz "Lexique des sciences sociales", Deuxième édition Dallols, Paris, 1983,p.93

Cazaneuve إن مفهوم الحضارة قد استخدم للتمييز بين الشعوب المتحضرة والشعوب المتخلفة، وكانت هذه الكلمة تعبر عن انتماء هؤلاء الذين يستخدمونها في العهد الكونيالي من أجل الإشارة إلى السيادة المطلقة لثقافة أوربا[3]

لكن دلالات المفهوم كانت أيضاً مختلفة حسب الثقافة القومية الغربية ، ففي الثقافة الانكلو-ساكسونية هناك تقاطع كبير لمفهوم الحضارة مع مفهوم الثقافة[4]وفي الثقافة الألمانية أقتصر المفهوم على نواحي التقدم المادي ،فقد ميز المفكرون الألمان، بين الحضارة والثقافة، فالحضارة جملة من المعارف النظرية والتطبيقية يمكن تناقلها، أما الثقافة فهي جملة من العناصر الروحية كالمشاعر والمثل والقيم المشتركة التي ترتبط خصوصيتها بجماعة معينة وزمن معين [5]أما الفرنسيون فكان المفهوم عندهم شاملاً لكل أبعاد التقدم [6].

وفي العصر الحديث ومع دخول الاستعمار الأوروبي إلى الدول العربية،جرى تداول مفهوم(Civilization)،وكان هناك اضطراب واضح في استخدام المفاهيم لعدم وجود تعريفات واضحة لمفاهيم (ثقافة-حضارة-مدنية) ووجود المفاهيم الثلاثة في اللغة العربية على حين لا يوجد سوى مفهومين في اللغة الإنجليزية، مما أدى إلى شيوع استخدام المصطلح بين الباحثين في الثقافة العربية بمعنيين: معنى الحضارة (Civilization) بمعنى المدنّية، يعبر عن حالة من الثقافة الاجتماعية تمتاز بارتقاء نسبي في الفنون والعلوم وتدبير الملك، وكذلك أطلق على الظواهر المادية في حياة المجتمع مقابل إطلاق لفظ الحضارة على(Culture)،بقصد الاشارة إلى الظواهر الثقافية والمعنوية، معنى (Civilization) بمعنى الحضارة: يُعد هذا الاتجاه هو الأكثر شيوعًا في الكتابات العربية منذ عام 1926م.[7]ومن الملاحظ أن شيوع مفهوم الحضارة ارتبط باستخدام الوسائل التكنولوجية الحديثة،أو بالعلوم والمعارف والفنون السائدة في أوروبا، وينطلق هؤلاء من أن الحضارة

---

[3] – هنا،غانم," فلسفة الحضارة" ، جامعة دمشق، كلية الآداب، 1979,ص32

J. Cazeneuve,, Sociologie du rite, éd. PUF, Coll. .Sup.-1971

[4] – انظر كاريزرس ,مايكل ,لملذا ينفرد الانسان بالثقافة,الثقافة البشرية نشأتها وتنوعها,ت.شوقي جلال,المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ,عالم المعرفة,العدد 229,الكويت,يناير,1998م ,ص30-49والفرد تايلور,الثقافة البدائية.ص

[5] – الليبي,الطاهر ،سوسيولوجيا الثقافة، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية،1978,ص7

E. Sapir, Anthropologie, éd. De minuit, coll. Points 1967 R. Bastide, Anthropologie- [6] appliquée, Petite Bibliothèque Payot; 1971.pp.3-7

[7] –عارف,نصر محمد, المرجع السابق, ص 39-40

هي جملة الظواهر الاجتماعية ذات الطابع المادي والعلمي والفني الموجود في المجتمع، وأنها تمثل المرحلة الراقية في التطور الإنساني.([8])

-مفهوم الحضارة في اللغة العربية: الحضارة كلمة مشتقة من الحضر وتعني الإقامة في القرى والمدن،وهي تقابل حياة البداوة وما يطغى عليها من حياة الرعي والتنقل في البوادي والصحراء[(9)]وقد ميز ابن خلدون بوقت مبكر بين مفهومي المدنّية والحضارة، إذ يقول (أن الاجتماع الإنساني ضروري و يعبر الحكماء عن هذا بقولهم الإنسان مدني بالطبع أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم و هو معنى العمران) وميز بين البداوة والحضر بقوله (ذكرنا أن البدو هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم، العاجزون عما فوقه، وأن الحضر معتنون بحاجات الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم) وربط بين الحضارة والمدينة في الفصل السابع عشر بقوله (أن الحضارة تتم في الأمصار من قبل الدول و أنها تترسخ باتصال الدولة ورسوخها، و السبب في ذلك أن الحضارة هي أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه و تفاوت الأمم في القلة و الكثرة تفاوتاً غير منحصر(..) و الحضارة غاية العمران [(10)]

2-مفهوم الثقافة:المعنى اللغوي لكلمة (ثقافة) تم اشتقاقه في اللغة العربية من الفعل الثلاثي "ثَقِفَ" أو "ثَقُفَ" بمعنى حَذَق أو مَهَرَ أو فَطَنَ (أو فَطِنَ) أي صار حاذقاً ماهراً فطناً فهو "ثَقِفٌ"، وثقافة ،وثقَّف الشيءَ أقام المعوَجَّ منه وسواه، وثقَّف الإنسانَ أدَّبه وهذَّبه وعلَّمه، ، ومفهوم الثقافة مفهوماً واسعاً بشموليته وتكثيفه للمعاني المتعددة ،نظراً للتداخل بين مفهوم الثقافة Cultureومفهوم الحضارة أو Civilization.لهذا نجد أكثر من تعريف للثقافة بين الباحثين، ومن بين هذه التعريفات المبكرة لمفهوم الثقافة هو تعريف أدوار تايلور حيث عرف الثقافة بأنها: (ذلك المركب الكلي الذي يشتمل على المعرفة والمعتقد والفن والأدب والأخلاق والقانون والعرف والقدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بصفته عضواً في المجتمع)[(11)]، وقد عرفت منظمة

---

[8] -لبيب,الطاهر,سيسيولوجيا الثقافة,ط3,دار ابن رشد,عمان,1986, ص6-9

[9] - إبراهيم العدوي و نايف عيد السهيل، الحضارة العربية الإسلامية، مؤسسة الشراع العربي، بيروت،1994م، ص8. وأنظر كذلك: إبراهيم الكروي وعبد التواب شرف الدين، المرجع في الحضارة العربية الإسلامية، منشورات ذات السلاسل، لكويت،1984م، ص13.

[10] -ابن خلدون,عبد الرحمن,المقدمة, المقدمة,المجلد الاول, الفصل الثاني,ص153-154 والفصلين 17و18

[11]- 464-463-Taylor.E.B,Primitive clture,London,1920,PP.

اليونسكو الثقافة (بأنَها جميع السمات المادّية، والروحيّة، والعاطفيّة، التي تُمَيِّزُ أيَّ مُجتمَع عن غيره، وهي تَضمُّ طريقة حياة هذا المجتمَع، وفنونه، وآدابه، بالإضافة إلى عاداته، وتقاليده، وحقوق الإنسان الأساسيّة فيه، وتُعتبَرُ الحياة الاجتماعيّة مُترابِطة ومُتكامِلة في المجتمَع من الناحية السلوكيّة، وكذلك الأفكار، والنُّظُم، التي تُشكِّل بدورها ثقافة المجتمَع، وللثقافة خصائص مُهمّة، فهي إنسانيّة، مُكتسَبةٌ، كما أنَّها اجتماعيّة، وتكامُليّة، ومُستمِرّة[12].

3- مفهوم المدنّية: Civilité يَرى البعض أنَّ المدنيّة مُرادِفة للحضارة؛ فهم يَرون أنَّها تحملُ الجانب المادّي والمعنويّ للحضارة،كما أنّهم يَعتبروهَا جملة الرقيّ في الصناعة والزراعة والخدمات في المجتمَع، ومفهوم المدنيّة يعبر عن المادّي من أيّ حضارة، كالعمران، والترفيه، وتطور وسائل الاتصال، فالمدنية هي حصيلة التفاعُل الحاصل بين العلوم وتطبيقاتها من جهة وما تنتجه الأمّة من جهة أخرى؛وهذا ما جعلها تَرتبِطُ بالمجالين: الاقتصادي والصّناعيّ،[13] والعلاقة بين الحضارة والمدنيّة، ترتبط لغوياً بالجذر المشترك لكل منهما (حَضَرَ، مَدَنَ)، وإنَّ شروط الحضارة لا تكتمل إلا مع الإقامة في المدُن ،وهذا الشرط يجعل التمييز بينهما صعباً حيث إنّ الحضارة بجانبيها الماديُّ والمعنويُّ شاملة للمَدنيّة؛وهم يرون أن للحضارة جانبان: المدنيّة هي الجزء الماديُّ منها، والثقافة هي الجانب المعنويّ والروحيّ للحضارة ([14]).ولا بد أن من التذكير بمفهوم المجتمع المدني CIVIL SOCIOTY الذي استخدمه الرومان، ثم اختفى، وعاد إلى الظُّهور في القرنَين السابع عشر،ويُعتقَد بأنّ جون لوك هو أول من أعاد استخدامi في (رسالة التسامُح) وذلك في الفترة التي تلَت اندلا ع الثورة الإنجليزيّة في عام 1688م،[15] وقد دُرِس المصطلَح المدنيّ على يد عدد من العلماء، والفلاسفة المتخصِّصين في عِلم الاجتماع، أمثال: هيغل، وروسو، حيث عُرِف ذلك المصطلَح خلال الفترة التي انتقلَت فيها أوروبا من مرحلة العصر المظلِم إلى مرحلة الدولة الحديثة

[12] –إعلان مكسيكو سيتي المعني بالسياسات الثقافية الذي اعتمده المؤتمر العالمي المعني بالسياسات الثقافية، المكسيك، 6 آب/أغسطس (1982.)الدواي,عبد الرزاق, في الثقافة والخطاب عن حرب الثقافات,حوار الهويات الوطنية في زمن العولمة,المركز العربي للأبحاث والدراسات, بيروت,2013, ص23

[13] – عزمي طه، قرعوش السيد، الثقافة الإسلامية، دارا لمنهل, عمان,2014صفحة – الأردن: المنهل، ص 15

[14] – عزمي طه، قرعوش السيد، الثقافة الإسلامية, ص53

[15] –لوك,جون,رسالة في التسامح ت. منى ابو سنة, المشروع القومي للترجمة, القاهرة,1999 ص25-41

4–التحضر/التمدن: Urbanization ربما كان مفهوم المجتمع المدني يدل على نوعية المجتمع ومؤسساته، لكن التحضر يدل على الكم العددي لسكان المدن ونسبة سكان المدن على مستوى الدولة.وجاء تعريف التمدن في (المعجم الوسيط) بأنه مشتق من فعل خماسي لازم تَمَدَّنْتُ، أَتَمَدَّنُ ، مصدر تَمَدُّنٌ، ويُقال تَمَدَّنَ البَدْوُ بَعْدَما اسْتَقَرُّوا في الْمَدِينَةِ وعاشُوا عيشَةَ أَهْلِ الْمُدُنِ وَتَكَيَّفُوا مَعَ جَوِّها، ويُقال تَمَدَّنَ الشَّعْبُ دَخَلَ في مَرْحَلَةِ الرُّقِيِّ والحَضارَةِ والعُمْرانِ.[16] أما المعنى الاصطلاحي فقد شاع في الادبيات الاقتصادية والمصادر والدوريات الاحصائية في العصر الحديث، مع الهجرات الكبيرة لسكان الريف نحو المدن، وأصبح هذا المؤشر يدل على نسبة سكان المدن، على اختلاف مقاييس حجم المدينة وحجم القرية، التي تختلف من بلد لآخر، و فترة إلى أخرى ، ففي فرنسا و المانيا في العصور المتأخرة الوسطى كان عدد سكان المدينة يتراوح بين 1500–3000 نسمة، في حين بعض الارياف في بلدان غرب آسيا كان عدد سكانها يزيد على10 آلاف، فمفهوم المدينة والقرية، استناداً إلى عدد السكان لا يعطي دلالة كافية على التحضر/التمدن.

ثانياً–رؤية بعض مفكري عصر الأنوار وعلماء الاجتماع للحضارة والتمدن الإسلامي:

من الصعوبة بمكان الاحاطة بجميع جوانب هذه الإشكالية، لان الفكر الغربي في عصر الأنوار كان يكافح جاهداً للتحرر من سلطة الكنيسة الفكرية من جهة ومن سلطة الإقطاع والملوك المستبدين ، وكانت معرفتهم بسيطة ومتواضعة عن الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى، لاتتعدى ما كتبه بعض الرحالة وممثلي البعثات التجارية في مدن مثل: دلهي أو بيروت أو استانبول..الخ وقد استخدموا هذه المعرفة البسيطة بأسلوب نفعي براغماتي، وركزوا على الجوانب واللحظات السلبية في النظم الشرقية، بهدف اقناع ملوكهم بالتخلي عن سياساتهم الاستبدادية، وإغراء حكامهم من جهة ثانية بالمنافع والمكاسب الاقتصادية لغزو تلك البلدان.ويُعد أول من لفت الانتباه لهذه المسألة الملحق التجاري البريطاني في الهند توماس رو Tomas Roe[17]والرحالة الفرنسي فرانسوا بيرنيه (1625–1688م)، ومن المهم الاشارة إلى أهمية كتاب ف.بيرنيه (رحلة) الذي نقل عنه العديد من المفكرين وعلماء الاجتماع والاقتصاد(جونز ، ماركس ومالتوس

[16] –تعريف التمدن موقع المعاني : https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/%D8%AA%D9%85%D8%AF%D9%86

[17] – Forster .w. The Embassy of Sir Thomas Roe 1615 – 1619 , Oxford ,1926 , pp.88-91

ومونتسكيو وآخرون) ودوره بتغيير سياسة الملك لويس الرابع عشر الاستبدادية صاحب مقولة (أنا الدولة والدولة أنا؟) وقد ركز بيرنيه على الاستبداد والملكية الخاصة بقوله : (إنه لأمر ضار بأن يكون الملك هو المالك الوحيد لجميع الأراضي في الدولة ، ومهما كان الملك طيّباً ورحيماً على شعبه، فإنه لا يستطيع أن يلغي بطش وتعسف المتصرفين وأصحاب الاقطاعات والتجار الضامنين للخراج في المناطق البعيدة عن المركز)[18] ويستنتج بيرنيه من هذه المقدمة (لهذه الأسباب فإن الدول الآسيوية تتعرض أمام أنظارنا لانحطاط مؤسف، ولا نرى في هذه البلدان غير المدن المبنية من الطين والأقذار بالمقارنة مع فرنسا؟! لهذا فإن الأراضي والسهول الرائعة في الأناضول وبلاد الرافدين وفلسطين وإنطاكية وأراضي أخرى، رغم خصوبتها فإنها لا تستثمر بشكل جيد، وتتحول إلى صحاري وأراضي متروكة، ومستنقعات غير صالحة للزراعة، (..) إذ لا تجد من يعتني بتنظيم النيل والأقنية لدرء الفيضان والجفاف، وتتراكم ملوحة التربة مما يتطلب جهوداً كبيرة وكلفة باهظة جداً لإعادة أحيائها)[19] ويفسر(بيرنيه) السبب في: (ان هذه الحكومات في تركيا والهند وفارس قد ألغت مفهوم (ملكي) و(ملكك) فيما يتعلق بالأرض، هكذا فلا قدر الله أن يصبح ملوكنا –الأوربيون– مالكين لجميع أراضي رعاياهم، عندها ستصبح أحوال الدولة ليست بحالة جيدة كما عليه الآن)[20]. وفي ذات السياق سار شارل لي مونتسكيوCH.L.Montesquiue (1689-1775)في كتابه (روح الشرائع) وميّز بين نوعين من المجتمعات من حيث الإدارة و طبيعة الحكم:(الديمقراطي) و(الاستبدادي) وحدد مونتسكيو عناصر السلطة الاستبدادية بثالوث؛ القوة و الخوف و الدين، وأكد أن أكثر الحكومات اعتماداً على الدين في دعم سلطتها كانت الهند و تركيا (العثمانية).كما ربط بين الاستبداد وخراب الزراعة و التصحر بقوله :(إن الحكام المستبدون يعتصرون من الأرض كل شيء يمكن أن تقدمه ،ولا يقدمون بالمقابل لها أي شيء ،مما أدى لانتشار الأراضي المهجورة ، والصحارى والمستنقعات والسبخات في كال مكان)[21].ولتكتمل الصورة لابد من التذكير بعالم السكان اليهودي توماس روبرت مالتوس T.R.Malthus(1734-1866م) وكتابه

[18] – بيرنيه, فرانسوا,آخر التحولات السياسية في دولة المغول الأكبر في الهند(رحلة إلى الهند)،الترجمة الروسية، ب.جوخوفيتسكي ,جتوماركي، م.توما، موسكو، 1936,ص202

[19] –المرجع السابق, ص203

[20] –المرجع السابق, ص206

[21] –المرجع السابق,ص212-213

(دراسات حول قانون السكان) حيث ربط بين نوعية الإدارة الحكومية والاقتصاد، وعلاقة ذلك بنمو السكان مستنداً لوقائع مجتزأة وغير صحيحة؟ إذ يقول:(بالنسبة للرحالة المهتم، ليس من الصعب محاولة فهم أسباب تناقص السكان في الجزء الآسيوي من الإمبراطورية التركية (...) فالسبب الرئيس في انخفاض السكان في تركيا بالمقارنة مع مساحتها، يعود إلى طبيعة حكومتها الطاغية و قوانينها الشديدة الظالمة، إضافة للإدارة الفاسدة، وعدم ضمان حقوق الملكية الذي يُشكل عائقاً أمام تطور الزراعة، إذ أنها تتدهور عاماً بعد عاما، و يتناقص معها عدد السكان)[22]ويستطرد قائلاً:(ان الحكومة التركية كانت تقوم باحتكار القمح، وتفرض بيعه في أسواق المدن بأسعار منخفضة، وفي ظروف المواسم الرديئة، كان يُفرض على من لديهم قمحاً أن يبيعوه في المدينة بأسعار متدنّية، وفي حال مخالفتهم يهددون بعقوبة الإعدام) ونقل مالتوس نصاً عن الرحالة الفرنسي(فولني) يقول بأن :الفلاح في سوريا كان يدفع إلى الباشا العثماني نحو نصف المحصول، وكان رجال الباشا يأخذون وقت جني المحصول ما يشاءون، بغض النظر عن جودة المواسم، و في حال امتناع المزارع عن الدفع أو عدم قدرته، فإنهم يأخذون منه ما يمتلك من أشياء و يبيعونها (..) وعندما تعاني القسطنطينية من نقص في المواد الغذائية، كان على عشرات الولايات أن تتضّور جوعاً من أجل إطعامها)[23] ويذهب خياله أبعد من ذلك فيقول :(إذا لم يتغير نظام الحكم الحالي المعمول به، فإن سكان تركيا خلال مائة عام سيتعرضون للانقراض؟!)([24])لكن مالتوس، لا يشير لأي شاهد أو مصدر، على العكس، يشير عدد من الباحثين في التاريخ العثماني بالنسبة إلى تركيا فقد ارتفع عدد السكان في عصر التنظيمات بشكل ملحوظ وتضاعف بين عامي 1830-1865م من 6، 5-12، 5مليون نسمة وعشية الحرب العالمية الأولى وصل عدد السكان إلى 14، 7 مليون نسمة[25] أما مستوى التمدن فقد ارافع من 17-20% ووصل عام 1912 إلى 23%[26] أما علماء الاقتصاد الانكليزي آدم سميث: A. Smith(1723-1780) الذي تحدث في كتابه الشهير(أبحاث حول طبيعة و أسباب ثروة الأمم) عن المنظومات الاقتصادية الآسيوية و الشرقية

[22] -مالتوس، توماس روبرت، مدخل إلى قانون السكان (الأعمال الكاملة باللغة الروسية)، ب.م ،1868,ص216

[23] -المرجع السابق, ص228

[24] -المرجع السابق, ص223

[25] Issawi,CH.,An Economic of Middle East and North Africa,London,1982,p.74

[26] Issawi,CH.,The Economic of Middle East and Turkey 1800-1914,London,1981,pp.34-35

بالمقارنة مع النظم الرأسمالية الأوربية في أربع فصول على الأقل من هذا العمل.لكنه لم يستخدم ولو لمرة واحدة مفهوم(الاستبداد) لوصف نظم الحكم الآسيوية، بل أبدى إعجاباً شديداً باهتمام الدولة بتنظيم الري والطرق و ضبط قيود التجارة، مشيراً في الوقت ذاته لتقصير الحكومات الأوروبية في هذا المجال. وعقد سميث مقارنات بين أنظمة الاقتصاد السياسي الأوروبية والأنظمة الآسيوية، معللاً عدداً من الظواهر الاقتصادية الخاصة بآسيا و مع أن "سميث" كان مطلعاً على كتاب بيرنيه، ويستشهد ببعض فقراته، إلا أن تأويله كان مختلفاً للظواهر الاقتصادية الآسيوية؛إذ يفسر أسباب اهتمام النظم السياسية في آسيا بالزراعة بشكل أساسي لا في الصناعة ، بأن دخل الدولة الأساس يعتمد على الزراعة، و(هذه المداخيل تزيد أو تقل تبعاً لزيادة ونقصان إنتاجية الأرض)[27].و يرى أن للمسألة أبعادا ًثقافيةً وسيكولوجيةً أيضاً، إذ يقول : (إن الصين تبارك الزراعة ، في حين في القسم الأكبر من أوروبا فالحرفي يتمتع بموقع أفضل من الفلاح ، وفي الصين يعتبر الحلم الأكبر للفرد هو الحصول على قطعة صغيرة من الأرض، سواء ملك أو إيجار، في حين ينظر الصينيون باحترام أقل للعمل التجاري)[28].أما ريتشارد جونز: Richard Jones فعلى العكس من بيرنيه ومونتسكيو ومالتوس كان معجباً بنمط الادارة العثمانية إذ يصفها بقوله:(في المنظومة العثمانية من الواضح أن هناك بعض المزايا، بالمقارنة مع المنظومات الفارسية و الهندية، كالاستمرارية و الاعتدال في تحصيل(الميري) أو ريع الأرض. إذ تعتبر هذه واحدة من المزايا الكبيرة و الهامة، و في حال تم جمع الريع هنا على نحو عادل، فإنه لن يكون في معدّله أكثر من ضريبة الأرض. وبالتالي فالحقوق العامة في ملكية السلطان للأرض، سوف تتحول لشكل بسيط و معتدل، أو لسلطة فخرية، مماثلة للسلطة التي يدَّعيها الملوك المسيحيون في أوروبا).[29] في حين كارل ماركس Karl Marx (1818-1883م) في رسالته لإنجلز يقول:(إن بيرنيه على حق تماماً إذ يرى، أن الأساس في فهم جميع الظواهر في الشرق- وكان يقصد تركيا و فارس و الهندوستان- يكمن في غياب الملكية الخاصة للأرض) وعن نشأة المدن في حضارات الشرق يقول ماركس: تنشأ المدن هنا أما حيث المكان

[27] – سميث، آدم. أبحاث حول طبيعة وأسباب ثروة الأمم (الطبعة الروسية) ترجمة مجموعة باحثين برئاسة تحرير: ف. نيزنوف, موسكو،1962 ، ص525

[28] –المرجع السابق,ص492

[29] – جونز،ريتشارد،المؤلفات الاقتصادية الكاملة (الطبعة الروسية)،لينيغراد(بطرسبورغ)،1937 ص99

الملائم للتجارة الخارجية،أو حيث يقيم رأس الدولة ومن حوله حاشيته، الذين يبادلون مدا خيلهم مقابل العمل،و ينفقون هذا الدخل وكأنها مدخرات عمل)[30] ولتقليل من شأن ظاهرة المدن ونشوئها المبكر في الحضارات الآسيوية يقول:(إن تاريخ آسيا بطبيعته الخاصة، وحدة لا تنفصم عراها بين المدينة والريف.وهنا ينبغي النظر إلى المدن الكبرى بمثابة، مكان لإقامة حكام البلاد،و هي أشبه بأورام نامية على البناء الاقتصادي بالمعنى الخاص للكلمة)[31].ورغم الخلاف العقائدي بين كارل ماركس وبين عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر Max Weberفإنهما ارتكزا على الرؤية الغربية كمقياس لقياس الحضارة والتمدن في آسيا ، وقد نظر كل منهما إلى ظاهرة (التمدن) من منظور اقتصادي بحت ، فقد ركز ماكس فيبر على معرفة الجذور التاريخية لظاهرة التمدن(Urbanization) واعتبر أن مبدأ الحرية مبدأً أساسياً للتمييز بين المدينة الأوربية والمدينة الآسيوية،لاسيما في مجال التنظيم الحرفي والسياسي والإداري واستقلالية هذه المؤسسات في المدينة. ويعتقد بوجود فوارق جوهرية من حيث النشأة والتطور بين مدن الشرق ومدن الغرب بالقول: (إن الشروط التاريخية لتطور المدن الآسيوية، هي شروط بالكامل مناقضة ومعاكسة تماماً لشروط تطور المدينة الغربية الوسيطة، وبالرغم من وجود سمات مشتركة بينهما، حيث أن كل منها كانت تحتوي على أماكن للتسويق و التجارة و الصناعة، والتنظيمات و الورش الحرفية والتجارية، التي تضمن لأفرادها بعض الاستقلالية (...) والفرق الجوهري بينهما، هو أن المدينة الغربية كانت المكان الذي تحققت فيه عمليات الانتقال من حالة اللا حرية إلى الحرية)[32]ولخص (فيبر) الفوارق الجوهرية بين مدن الشرق ومدن آسيا في مجال الإدارة والتنظيم السياسي، بالتمييز بين سمات الإدارة الذاتية للمدن الغربية، مقارنة مع المدن الآسيوية، التي لا تتمتع بهذه الصفات وهي:

1-الاستقلال السياسي للمدينة الغربية و نهج سياسة خارجية مستقلة عن سلطة الملك.

2-الحكم الذاتي للمدينة: حكومة المدينة تتمتع بالاستقلال في الإشراف على إدارة المدينة وتنظيماتها و طوائفها الحرفية.

---

[30] -المرجع السابق, ص464

[31] - ماركس.ك ، المخطوطات الاقتصادية للأعوام1857-1859، في الأعمال الكاملة, المرجع السابق ، مجلد46، ج1،ص47

[32] - فيبر, ماكس، المدينة, (باللغة الروسية)، بطرسبرغ،1923، ص 30

3-الاستقلال في مجال السلطة القضائية.

4- إن دفع الضرائب لإدارة المدينة، تحمي سكانها من دفع أية إتاوات وغرامات أخرى .

5 – قانون السوق:حيث يشرف مجلس المدينة على التجارة و الصناعة لمنع الاحتكار، يساعده جهاز شرطة، يعمل تحت أمرة (السينيور) للإشراف على تطبيق الأنظمة والقوانين[33].وحسب اعتقاد(فيبر)(أن مدن آسيا، كانت محرومة تماماً من هذه الحقوق ولم تكن المحاكم الحرة موجودة أصلاً، حتى مفهوم المواطنة بالمعنى الغربي لم تكن تعرفه مدن آسيا مطلقاً)[34] وإذا كانت(المدن الغربية) قائمة على أسس من العلاقات الاقتصادية، حسب مهنة وعمل الأفراد، وعلى علاقات سياسية ينظمها القانون، وتقوم على مبدأ اتحاد المواطنين الأحرار في المدن؛ فإن المدن الشرقية كانت تقوم على علاقات (ما قبل مدنيّة) كما يقول ماكس فيبر:(فالمدن العربية، ومكة على سبيل المثال، كانت في العصور الوسطى وما تزال في الوقت المعاصر، تشكل نموذجاً صرفاً لتجمع قبلي)[35]

ثالثاً- المدنية والحضارة الإسلامية في الاستشراق

إذا كان التعارض واضحاً بين أراء مفكري عصر الأنوار وعلماء الاجتماع والاقتصاد في نظرتهم إلى الحضارة والمدنية في آسيا، فإن التعارض في الاستشراق وصل إلى درجة التناقض في نظرتهم إلى المدنية في الحضارة الإسلامية ، إذ نجد مثلاً في الاستشراق الروسي آراء متباينة إلى حد التناقض أحياناً، بين الموضوعية العلمية التي تمثلها مدرسة بليايف والمدارس الأخرى، ففي كتابه (العرب والإسلام) يقول بليايف: إن العرب المسلمون الفاتحون تميزوا عن غيرهم في المحافظة على أوضاع وحياة الناس الاقتصادية والاجتماعية وعلى التنظيمات الادارية في البلدان المفتوحة[36] بينما نجد أستاذ اللغات الشرقية في جامعة بطرسبورغ نفال، يجري في منحى مشابه لمنحى مونتسكيو ومالتوس بالقول :في كلّ مكان تسود الشريعة الإسلامية لا يمكن أن يوجد هناك أي شكل للملكية الشخصية ، هذه الشريعة حسب معرفتي كانت دائما ودونما انقطاع تصدر عن السلطة العليا التي بأنانيّتها تسعى بتمديد شروط استبدادها من خلال سنّ قانون الملكية الذي يشكل السبب الجوهري

[33] –فيبر,ماكس, المدينة,189-202

[34] –المرجع السابق, ص23

[35] –المرجع السابق,25

[36] –بلياييف, أي,أ,العرب والإسلام (تاريخ الخلافة العربية –الدولة الأموية والعباسية), الطبعة الثانية, موسكو,1966

في وجودها) [37] بالطبع إنّ نفتّال لم يشر ولو بكلمة واحدة أو تنويه إلى المصادر التي استقى منها معرفته هذه كأن يشير إلى نصّ من القرآن أو مصدر فقهي للتشريع الإسلامي .وربما لم يكن فعلاً على علم بوجودها أو سمع بها ، وموقفه على الأغلب موقف سياسي وعدائي للإمبراطورية العثمانية.فعلى النقيض من ذلك رأى مواطنه من مدينة بطرسبورغ اوليغ.غ.بولشاكوف، :(أن التشريع الإسلامي كان متقدماً كثيراً على عصره وعلى القوانين الوضعية الأوربية، وأعتبر هذا التشريع بأنه تشريع برجوازي أكثر من المجتمع الذي وجد فيه)[38]وهو رأي يتسق مع وصف المستشرق الألماني كلود كاهن ، الذي رأى أن (المجتمع العربي الإسلامي في القرنين الثامن والتاسع كان متقدماً على عصره وكان مجتمعاً برجوازياً بكل ما لهذه الكلمة من معنى)[39].وفي السياق ذاته كتب المستشرق شلومو غويتين Goitien الذي عنون الفصل الحادي عشر من كتابه (دراسات في التاريخ الإسلامي ومؤسساته) بعنوان (صعود برجوازية الشرق الأوسط في العصر الإسلامي الأول) واعتبر مرحلة القرنين العاشر والحادي عشر(الرابع والخامس هجري) مرحلة صعود الطبقة البرجوازية، التي تشكلت من عدد من التجار مع تطور التشريع الإسلامي بما يتوافق مع مبادئ التجارة المركانتلية، فتشكلت طبقة أصبحت القوة الاقتصادية الأكبر على مدى مئة عام [40] واعتبر غويتين أن الاسلام احدث ثورة في حركة التمدين العالمي(41).

أما المستشرق الروسي فاسيلي بارتولد صاحب كتاب (تاريخ الحضارة الإسلامية)[42] الذي أثار أعجاب القوميين الاتراك، وقدم له مقدمة طويلة محمد فؤاد كوبريلي[43]، وهو كتاب ينظر للحضارة الإسلامية من منظور قومي، بتقسيم التاريخ الإسلامي إلى تاريخ قوميات؟!وقد اطنب المؤلف

---

37 – أي . نفتّال – محاضرات في القانون الإسلامي,سانت بطرسبورغ ,1886 ,ص7

38 ––اوليغ.غ.بولشاكوف,مدن الشرق الأدنى في العصر الوسيط(في القرن السابع وأواسط القرن الثامن),موسكو(باللغة الروسية),1984 ,ص290

39 –كاهن,كلود,تاريخ الشعوب الإسلامية منذ ظهور الاسلام حتى بداية الامبراطورية العثمانية ,ت .بدر اليدن قاسم,بيروت,1974 ,ص 194

40-Goitein,S.D.The Rise of the Middle Eastern Bourgeoisie in Early Islamic Times, "Studies in Islamic History and Institution,LEIDEN,E.J.BRILL,1968,PP.217-242

41 IBD,218–220

42 – بارتولد فاسيلي , تاريخ الحضارة الاسلامية, ت.حمزة طاهر,دار المعارف, القاهرة, 1952,ص61–90

43 –المرجع السابق, ص15–20

بالدور الفارسي وخصص له الفصل الرابع وعنونه (الحضارة الايرانية وتأثيرها في الممالك الإسلامية)، و ركز على دور الثقافة الفارسية في الحضارة الإسلامية ، وفي مواضع أخرى من الفصل الأخير ركز على الدور القومي التركي في الحضارة الإسلامية، في حين حط من شأن العرب مستشهداً بمقتطفات من ابن خلدون[44]دون فهم للمعنى الذي قصده ابن خلدون لدلالات كلمة العرب .أما المستشرق الأمريكي من أصل انكليزي هاملتون جب فقد رأى أن (للإسلام ملامح مختلفة بتأثير العوامل الجغرافية والاجتماعية والسياسية وقوة استجابته لها ويضرب امثلة عن الاسلام في اسبانيا او جنوب شرق آسيا وأفريقيا وآسيا الغربية حسب المناطق الجغرافية التي انتشر فيها، اتسمت بالترابط رغم اتساع الرقعة الجغرافية في وحدة قائمة على التنوع عبر المكان والزمان)[45]وفي مكان آخر يقول (وإذا ما نظرنا من منظور علاقة الاسلام بالريف فإن الحضارة الإسلامية والثقافة الإسلامية كانت ذات طابع مديني اتخذت من المدن مركزاً لها، وبهذا المعنى فالإسلام دين وثقافة أتخذ من المدن مركزاً لنشر الدين وثقافة الاسلام)[46]ومن المهم التذكير بآدم متز الذي وضع كتاب (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع هجري أو عصر النهضة في الاسلام)[47]وقد أثار كتابه ردود أفعال عند بعض المستشرقين لاستخدامه مفهوم النهضة الإسلامية (Die Renaissance des Islam). ومن الضرورة بمكان التذكير بالمستشرق الأمريكي الصهيوني برنار لويس، ومواقفه العدائية للإسلام ومشاريعه الصهيونية لتقسيم العالم الإسلامي، فقدم حذّر من عودة الاسلام إلى سابق عهده في قيادة العالم فكتب في فصل (تعريف الاسلام):(قدم الاسلام على مدى ما يربو الألف عام المنظومة الشاملة المقبولة الوحيدة التي تنظم الحياة العامة والاجتماعية حتى في عهود ذروة النفوذ الأوربي في العهود التي حكمت فيها القوة الامبريالية الأوربية، أو فرضت هيمنتها عليها أو في عهود استقلال تلك البلدان ظلت الأفكار والمواقف الإسلامية عميقة التأثير ، وواسعته ، وثمة علامات عدة اليوم على ان تلك الأفكار والمواقف ، ربما كانت في طريقها إلى العودة مجدداً ولو بصيغ معدلة لاستعادة

---

[44] –المرجع السابق,ص68–70

[45] –جب, هاملتون, دراسات في حضارة الاسلام,ت.احسان عباس وآخرون ,دارالعلم للملايين ,بيروت ,الطبعة الثالثة, 1979م ص3

[46] –المرجع السابق, ص26–27

[47] – متز,آدم,الحضارة الاسلامية في القرن الرابع هجري أو عصر النهضة في الاسلام,ت.محمد عبد الهادي ابو ريده,القاهرة 1947

هيمنتها السابقة)[48] وفي تعريف الاسلام قال :(الاسلام من ديانات العالم الكبرى، وعلم الناس من شتى العقائد على الحياة جنباً إلى جنب بتسامح معقول، وكانت مصدر الهام حضارة عظيمة، عاش الآخرون إلى جانب المسلمين حياة خلاقة مفيدة، حضارة اغنت العالم بمنجزاتها، غير ان الاسلام شأنه شأن الديانات الأخرى عرف حقباً اجج فيها نفر من اتباعه مشاعر العنف والكراهية، ومن سوء حظنا ان نواجه قسماً من العالم الإسلامي يجتاز هذه الحقبة في زمن تتجه اكثر تلك الكراهية لا كلها نحونا) وقد واجه لويس انتقادات شديدة بسبب اجتزائه الحقائق ووضعها في سياق يتفق مع مواقفه وتشويه صورة النبي محمد (ص) والادعاء بأنه أصبح في المدينة قاضي وحاكم وملك، وأن الهدف من الفتوحات الإسلامية كان الغنائم وجمع الثروة، وعدم توثيق معلوماته بشكل مقصود أو بسبب التعصب السياسي والإيديولوجي للصهيوني[49] لكن الأكثر تطرف منه ربما كان هالفن Halphen، L في كتابه(البرابرة منذ الغزوات الكبرى إلى الفتوحات التركية في القرن الحادي عشر) فقد تحامل في كتابه على الإسلام والمسلمين ووصفهم (بالبرابرة والغزاة والمتوحشين الذين لم ينتجوا حضارة كما لا يمكنهم ان يتركوا آثارا على حضارات غيرهم)[50] على النقيض من هؤلاء جد غوستاف لوبون يقول:(للإسلام وحده أن يباهي بأنه أول دين أدخل التوحيد إلى العالم وتشتق سهولة الإسلام العظيمة من التوحيد المحض، وهنا يكمن سرّ قوة الإسلام، وهو غير موجود في الأديان الآخرى، فهو خالٍ من المتناقضات والغوامض([51]) ورصد لوبون أبعد أثر الحضارة الإسلامية على الحضارة الأوربية فيقول:(كان للحضارة الإسلامية تأثير عظيم في العالم، وان المسلمين هم الذين فتحوا لأوربا ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية، بتأثيرهم الثقافي، فكانوا بالفعل ممدنين لنا وأئمة لنا طيلة ستة قرون(..) فأوروبة مدينة للعرب بحضارتها،و الحق أن تأثير العرب في الغرب ليس أقل منه في الشرق،ولا يمكن إدراك أهمية شأن العرب في الغرب إلا بتصور حال أوروبة حينما أدخلوا الحضارة إليها إذا رجعنا إلى القرن التاسع والعاشر من الميلاد، حين كانت

[48] –لويس, برنار ,أزمة الاسلام الحرب الأقدس والإرهاب المدنس,ت. حازم مالك محسن,بغداد,2013 ,ص49-50

[49] –مطبقاني,مازن بن صلاح, الاستشراق الاتجاهات الفكرية في التاريخ الاسلامي,دراسات تطبيقية على كتابات برنار لويس,الرياض ,1995, ص437-446

[50] الشامي،–ديب, الحضارة والنظام العالمي، دار الإنسانية، بيروت، 1995م، ص 348

[51] – غوستاف لوبون، حضارة العرب، نقله إلى العربية: عادل زعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، بدون تاريخ، ص125

الحضارة الإسلامية في إسبانية ساطعة جداً، رأينا أن مراكز الثقافة في الغرب كانت أبراجا يسكنها سنيورات متوحشون يفخرون بأنهم لا يقرأون([52]).أما كويلر يونج في بحثه (أثر الثقافة الإسلامية في الغرب المسيحي) فيذكر مسيحيّ اوروبا المعاصرة،بالدَّين الثقافي العظيم الذي يدينون به للإسلام منذ أن كان اجدادهم في العصور الوسطى، يسافرون إلى حواضر الإسلام، في اسبانيا خاصة (ليتلقوا على ايدي معلميها من المسلمين، الفنون والعلوم وفلسفة الحياة وفي جملة ذلك التراث الكلاسيكي القديم الذي احسن الإسلام رعايته وصانه من الضياع حتى استطاعت اوروبا ان تسترده وترعاه).[(53)].

وحول علاقة الاسلام بالتمدن كتب المؤرخ اللبناني جرجي زيدان (لا مشاحة في أن تاريخ الإسلام هو حلقة موصلة بني التاريخ القديم والتاريخ الحديث، فيه انتهى التمدن القديم، ومنه أشرق التمدن الحديث)[(54)]، وقسم زيدان التمدن الإسلامي إلى دورين ، يبدأ الدور الأول بظهور الإسلام وينتهي بذهاب الدولة العباسية من العراق، وتدهور الخلافة الإسلامية وتسلط المغول عليها، ويبدأ الدور الثاني مع الدولةُ العثمانية وإحياء الخلافة الإسلامية، بجمع شتات الاسلام السني تحت رايتها وقيام الدولة الصفوية الفارسية، وجمع شتات الشيعة تحت رايتها.([55]).وهناك مقاربات لمفهوم التمدن الإسلامي كمقاربة تستند للفكر الغربي، مثل مقاربة ألبرت حوراني، الذي تحدث عن المدينة العربية الإسلامية بالقول:(إن الاستقلال السياسي كشكل للحكم الذاتي للمدن، بمقاربة مع أشكال التنظيمات الحرفية النقابية، على أساس نوع المهنة في نظام الحرف الأوربية، كان من غير الممكن وجودها في العالم العربي، لأنها كانت تتناقض أساساً مع فلسفة الإسلام ذاتها القائمة على وحدة تضامن الأمة الإسلامية،في مسؤوليتها أمام الإرادة الاجتماعية)[(56)] أما شترن (S.M.Setern) فقد رأى الفارق الجوهري بين المدن الشرقية والمدن الغربية بالحرية وحقوق الاجتماع بالقول: (إن من بين أهم الفوارق البارزة بين المجتمعات المسيحية الغربية والإسلامية، يكمن في حقوق الاجتماع

---

[52] –المرجع السابق, ص566

[53] – توفيق الطويل، في تراثنا العربي الإسلامي، سلسلة عالم المعرفة (87)، الكويت، مارس 1985م، ص61.

[54] – جرجي زيدان, تاريخ التمدن الاسلامي,الجزء الأول مؤسسة هنداوي للثقافة والنشر,القاهرة,2012,المقدمة ص4

[55] –زيدان, جرجي, ج4,ص9

[56]– 70- Hourani.A.N.Introduction To Islamic city in the light of Recent Research: the Islamic City Acolloquim, Ed .by: A.Hawrani and S.M Stern, Oxford, 1970, p.14

والتنظيم، ففي حين أنها في الأولى كانت تشمل جميع أشكال التنظيمات الحرفية، التي كانت تزدهر باستمرار كانت في الثانية متغيبة تماماً؟!) [57]وفي حين أشارت المستشرقة الأمريكية إيرنيا لابيدوس (I.Lapidus) إلى دور الدول الإسلامية في دفع حركة التمدن بقولها:(إن الدول الإسلامية التي حكمت دفعت بحركة التمدن دفعات قوية كبيرة بما اتبعته من سياسات اقتصادية لتنمية الأنشطة الزراعية والتجارية وساعد تنظيم الادارة والظروف السياسية على نم المدن وحركة التمدين الإسلامية)([58]) فإنها أعادت ما قاله (فيبر) بصياغات جديدة (إن مفهوم المدنّية الغربي، لا ينطبق على كثير من المدن في العالم الإسلامي، التي تتغيب صفات المدنيّة عنها ، بدأ من العصر الوسيط وحتى الوقت الحاضر[59]

رابعاً–المدنّية في الحضارة الإسلامية

بعد أن قدمنا لمفاهيم المدنّية والحضارة وآراء المفكرين والمستشرقين في الغرب، لا بد أن نختبر هذه المفاهيم ومدى صحة هذه الآراء بمؤشرات ومقاييس كمية ونوعية، لكن من أين نبدأ؟من دلالات المفاهيم، من عدد المدن التي بناها المسلمون؟ من المساحة وعدد السكان للمدن الإسلامية؟من الوظائف الاقتصادية والصناعة والتجارة والإدارية ونظام الحسبة؟من الخدمات وعدد الحمامات والمساجد، من العلوم الإسلامية التي تذخر بها المكتبات ؟!

أ–دلالات المفاهيم:إذا ما بحثنا في اللغة التي استخدمها المؤرخون المسلمون عن معنى المدينة، سنجد أن بعضهم مثل الجوهري في (الصحاح) والزبيدي في (تاج العروس) حاولوا رد المدينة في اللغة إلى جذر دين و ديّان، بمعنى الملك فقد، في حين فسرها آخرون مثل ابن منظور في (لسان العرب) والفيروز آبادي في (القاموس المحيط) بمعنى الحُصن (مدينة تبنى في أطَمَة أي في مكان مرتفع) ([60])وهناك ألفاظ ومترادفات عديدة لمعنى كلمة مدينة مثل:مِصر، قصبة، حاضرة–قرية–بلد او بلدة–مدرة–كورة–حوزة..الخ وإذا ما حولنا معرفة هذه المعاني في القرآن ، فقد أحصى الباحث

[57] –ibd,p.47

[58] -*Middle Eastern* Cities: A *Symposium* on Ancient, Islamic, and Contemporary *Middle Eastern Urbanism*. Front Cover. Ira Marvin Lapidus, California. University Pres.Los angelos,1969,p.5

[59] -Lapidus,I,M,Muslim Urban Society in Mamluk Syria.: : the Islamic City Acolloquim, Ed .by: A.Hawrani and S.M Stern, Oxford, 1970.pp.195-199

[60] – مصطفى,شاكر, المدينة في الاسلام حتى العصر العثماني, الجزء الأول,الكويت,1988,ص30

مصطفى شاكر عدد مرات كلمة مدينة وجمُعُها مدائن نحو من 17 سبعة عشر مرة ، وكلمة البلد ورد نحو 9 مرات، والبلاد نحو من خمس مرات، وبلدة اربع مرات وجميع هذه المعاني عبرت عن معنى المدينة.أما معنى قرية دلالة على المدينة كتجمع اصغر حجماً فورد نحو 56 مرة لاسيما في وصف مكة والطائف([61])وفي الحديث الشريف ذُكرت كلمة المدينة في 20 حديثاً كما ورد في كتب السنن، وكلمة قرية بمعى مدينة صغيرة نحواً من 63 حديثاً[62]وقد اهتم المؤرخين المسلمون بتاريخ المدن ، فهناك ما يزيد على130 كتاب في تاريخ المدن الإسلامية في المشرق الإسلامي بين القرنين الرابع والسابع هجري [63] لكن ما هو عدد المدن التي بناها المسلمون؟ أحصت بعض المصادر عددها بنحو من 128مدينة إدارية ونحو (24مدينة-معسكر)، منها(84) مدينة بُنيت في عصر الخلافة العباسية[64]ويذكر الباحث مصطفى شاكر أنه أحصى عدد المدن التي بناها المسلمون فبلغت نحو(450) مدينة اضافها الاسلام إلى العالم.[65] لكن ما هي سمات المدينة الإسلامية؟

ب-سمات المدينة الإسلامية: من الصعوبة هنا الاحاطة بجميع سمات المدينة الإسلامية، نظراً لتعدد هذه السمات واختلاف أدوار ووظائف هذه المدن وتطورها مع الزمن، وسنتوقف عند بعض هذه السمات لتوصيف المدن، التي بناها المسلمون في العصور الإسلامية المبكرة ومن أهم هذه السمات:

1-حجم المدن: يختلف حجم المدن الإسلامية من حيث المساحة وعدد السكان عن حجم المدن الغربية ، اختلافاً كبيراً، ففي الولايات المتحدة مثلاً كان مفهوم المركز الحضري (مدينة)في عشرينات القرن العشرين، اذا كان عدد سكانه 2500 نسمة فأكثر ([66])وفي تقرير صادر عن الأمم المتحدة ، ذكر أن الحد الأدنى لعدد سكان المدن يتراوح بين 200 نسمة في السويد والدانمارك، و يصل إلى 2000 نسمة كما في الولايات المتحدة وفرنسا، ونحو 10 آلاف كما في

[61]-مصطفى,شاكر, الجزء الأول, ص 25-28

[62] -المرجع السابق,ص31

[63] -المرجع السابق , ص39

[64] - هاملتون جب,التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى,دمشق,دار الكتاب,ب.ت.ص27

[65] -شاكر,مصطفى, ج1,ص18

[66]- Hartshon,T.A.&Dent,B.D.,Interpreting the city ,An urban Geography, Jogn wiley &sons,Newyork,1980,p2.

اسبانيا و تركيا وبلغ في اليابان يصل إلى 30 الف نسمة([67]).بقيت معايير حجم السكان لتمييز الريف والمدينة مثار خلاف بين الباحثين، وتختلف من حضارة إلى أخرى، لكن في حقيقة الأمر ومن منظور انثروبولوجي لم تعرف أوربا في العصور الوسطى المدن والثقافة المدنّية لفترة طويلة نسبياً، بسبب تدمير الغزو الجرماني لمخلفات الحضارة الرومية ومراكزها الإشعاعية المدن، وكانت نواة بعضها قد ظهرت في القلاع والحصون الإقطاعية سابقاً، لكن المدن الأوربية الحرة عادت للظهور مع مطلع القرن الحادي عشر بعد اختفائها الكلي قرابة أكثر من ستة قرون، ومع انحلال النظم الإقطاعية في القرن التاسع عشر، وانفصال العمل الحرفي والتجارة عن الزراعة، أخذت نواة المدن الصناعية الحديثة تتكون حول الأسواق الناشئة للتبادل بين الحرفيين الأحرار والمزارعين ، وتحول قسم كبير من الحرفيين للإنتاج من أجل السوق.هكذا تكوّنت المدن الصناعية الحرة بشكلها الجديد كمراكز للإنتاج الصناعي والعمل التجاري حول الأسواق المؤقتة، التي تحولت مع الوقت لأسواق دائمة، وبدت كأنها تجمع بشري جديد عماد سكانها الأساسي من الحرفيين والتجار، فكانت المدن الأوربية الناشئة قليلة السكان والمساكن ولم يتجاوز عدد سكان بعضها 500 نسمة وكانت المدن التي تضم أكثر من 3000 نسمة تُعد مدناً كبيرة([68])، ومن الناحية العمرانية كانت عبارة عن أحياء بسيطة ، قوام سكانها الأساسي هم الحرفيون والتجار وقد تضم بعض ملاكي الأرض ورجال الإدارة المحلية،ثم تطورت مع الوقت، مع تطور عملية التبادل بين المزارعين من جهة والحرفيين والتجار من جهة أخرى ، ووصول كميات أكبر من هذا الفائض إلى المدن الجديدة، بدأت المدن الغربية بالاتساع عمرانياً وديموغرافياً، وأخذ المزارعون يتوجهون لبيع منتجاتهم في أسواق المدن القريبة، ويستوردون بدلاً منها السلع المصنعة والأدوات والآلات الزراعية لتطوير حياتهم وطرائق إنتاجهم([69])، أما المدن العربية الناشئة بين القرنين السابع والتاسع ميلادي فنشأت من أسباب ثقافية وإدارية، فمع ظهور الإسلام واتخاذه المدن مراكزاً لنشر الإسلام وثقافته المدنية، بدأت نواة الدولة الإسلامية بالتكوّن والتطور، وكانت أولى هذه المدن هي (المدينة المنورة) ومع انتشار الاسلام في العهدين (الأموي والعباسي) اتسعت حدود سيادة الدولة الإسلامية، لتشمل مناطق شاسعة امتدت من إسبانيا إلى جنوب

[67] U.N., Department of Economic and social Affairs"Geowth of the world urban and Rural population, 1920-2000, "population studies, 44, 1969, p48-81.

[68] – عاشور, سعيد عبد الفتاح,(أوربا في العصور الوسطى),ط1,ج4 ,القاهرة,1963,ص 73

[69] –المرجع السابق ,ص 73

فرنسا ، ومن الهند إلى جبال القفقاس وأواسط آسيا ،وأصبحت المدن الإسلامية مراكز لإشعاع ثقافي وحضاري للدين الإسلامي من جهة، ولإدارة الأطراف التابعة لها من جهة أخرى، وكان الخلفاء يختطون المدن ويبنونها من موارد الدولة الأساسية(الخراج) الواصل لخزينة الدولة من الأطراف الزراعية.لقد تغير حجم سكان المدن الإسلامية عبر العصور مع تغير وظائف وأدوار المدينة، وتغير أنظمة الحكم، وارتبط عدد السكان المدن بحجم الغذاء والدخل الواصل للمدينة على شكل (خراج) وتعدد وظائفها الاقتصادية ، وعلى سبيل المثال كان عدد سكان مدينة القاهرة في العصر المملوكي يُقدر بنحو 500 ألف نسمة حيث كانت عاصمة الدولة المركزية في مصر، ثم انخفض عدد سكانها إلى النصف 250 ألف في القرن الثامن عشر ، وانتقال مركز العاصمة إلى القسطنطينية (الآستانة– استانبول) التي ارتفع عدد سكانها من 200 ألف نسمة في بدايات القرن السادس عشر وتراوح بين 600–700 ألف نسمة في القرن السابع عشر([70]) لكن عدد سكانها انخفض بمقدار 200 ألف نسمة في أواخر القرن الثامن عشر وأصبح يتراوح بين 400–500 ألف نسمة [(71)]، ويرى بعض المستشرقين أن ارتفاع عدد السكان في الحضارات الشرقية كان يعبر عن تضخم حجم جهاز الإدارة الحكومية [(72)] الذي يتخذ أفراده من المدن سكناً لهم، فقد تحدث بولشاكوف عن مدينة (بغداد) في العصر العباسي، التي قدر عدد سكانها بنحو 500 ألف نسمة ، بأن نحو 25% من سكان المدينة كانوا يقيمون في المدينة لكون المدينة هي العاصمة والمركز الاداري الأساسي للدولة العباسية([73]).ربما كان صحيحاً الاستنتاج بأن بعض المدن هنا كانت تشغل وظائف إدارية، وتعيش من حساب الفائض(الخراج) القادم من الريف، لكن هل مفهوم الحرية والقانون الوضعي وحق الفرد في الملكية الخاصة والعمل والتجارة، كما يراه ماكس فيبر ومفكرون آخرون يكفي لتميّز المدنّية الغربية، في حين كانت معظم مدن أوربا حتى منتصف القرن التاسع عشر، تفتقر للنظافة وإلى شبكات طرق، ووجود دورات مياه وشبكات مياه صالحة للشرب وشبكات الصرف الصحي

[70]-Baer,G.Fellah and town man in the Middle East.London,1982,p.283.

[71]-Lapidus,Ira,Marvin.Muslim Cities in the latter middle ages, Cambridge, Massas-husetts, 1967, p.103.

[72] بكشانين,أ.أ.مراحل التطور الأساسية للمدينة الصينية في العصور الوسطى(زاروبيجني فستوك) قضية التاريخ الاقتصادي للمدينة,موسكو,1991,ص 84

[73] –بلوشاكوف,أوليغ, ,تاريخ الثقافة العربية بين القرنين الخامس والخامس عشر,موسكو(الترجمة العربية),1989, ص200

والمدارس ومراكز الاستطباب والعلاج، وحتى نظام البلديات الذي عُرف بنظام (الحِسبة) وهو ما تمتعت به المدن الإسلامية دون استثناء؟.

2-أنواع المدن الإسلامية:اختط المسلمون أنواعاً عديدة من المدن منها مدن- المعسكر، التي تحولت إلى مدن إدارية مثل(الفسطاط وسامراء) ومنها مدن عواصم مثل (القاهرة وبغداد) ، ومنها مدن تجارية أو صناعية مثل (البصرة-دبيق) ، فقد بنى الأمويون والعباسيون مدن جديدة مثل (الفسطاط والقطائع والقاهرة في مصر، وسامراء وبغداد والموصل والكوفة و واسط في العراق، والرقة والرصافة وجبلة والرملة في الشام، وتونس والقيروان والزويلة وتلمسان في شمال أفريقيا، وقرطبة ومجريط(مدريد) والزهراء والمرية ومرسية في الاندلس ، وبنى العثمانيون تيرانيا وصربيا وكوسوفو وسيراييفو وفي سوريا القطيفة وسعسع ..الخ)، بالإضافة إلى هذه المدن كانت هناك مدن موجودة سابقاًوتطورت في عهد الاسلام مثل دمشق وحلب وإنطاكية ونصيبين وماردين والإسكندرية، ودمياط، والقسطنطينية..الخ وسنتوقف عند أنواع بعض هذه المدن:

2-1-مدن الادارة:

2-1-1-المدينة المنورة:أول هذه المدن هي (المدينة) أو(يثرب) التي كانت قرية صغيرة تعتمد على قطاع رعوي زراعي وأتخذها النبي (ص) مركزاً لنشر الدعوة الإسلامية ،ولم يكن عدد سكانها يزيد على1500 رجل*في بداية القرن السابع([74])ولم تكن مصادر دخلها وافرة في بداية نشأتها، وكانت تعتمد على ما يصلها من غنائم الغزوات وعلى محاصيل الأرض التابعة لها، وقد فرض النبي(ص) الضريبة على الزراعة فتراوحت بين1/4/1-3/1 المحصول من الحبوب، وفي محاصيل تمر أهل خيبر إلى النصف([75]).ولم يتدخل النبي(ص) في الأسواق وترك حرية التجارة أو الاقتصاد حراً ، وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب وصل مال كثير حمله الصحابي ابو هريرة والي البحرين آنذاك، فأحدث عمر (رض) نظام الدواوين، وقام بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية في الحكم المدني كالقضاء ووضع نظام الضرائب ومراقبة الأسواق، والسهر على النظام والأمن لسكان المدينة.

2-1-2-الفسطاط: مع الفتح الإسلامي لمصر ظهرت مدينة (الفسطاط) التي اختطها الصحابي عمرو بن العاص، وقد بُنيت في البدء من الطين والقصب وتوزع مخطط الفسطاط إلى

[74] - محمد السامرائي,حضارة المدينة في عهد الرسول, الموصل, 1982,ص 19

[75] - حسن خالد(مفتي لبنان سابقاً),مجتمع المدينة,بيروت,1968 ,ص49

19حياً، وكل حي حمل اسم الوحدة العسكرية أو (القبيلة) التي عسكرت فيها([76])ثم أعيد بناؤها فيما بعد من الحجر محل بيوت القصب، لتصبح المركز الإداري الرئيس لمصر وتحل محل الإسكندرية. وكما وصفها الرحالة الفارسي ناصري خسرو صاحب (السفرنامة)(في المدينة أبنية وعمارات مرتفعة مؤلفة من سبع طوابق، وبعضها 14طابق، وفيها الخانات والأسواق الضخمة، وكانت مضاءة طوال الليل ويمكن رؤية أضواء المدينة على بعد 30 فرسخاً(الفرسخ=5كم)([77]).وقد بنى عبد العزيز بن مروان في الفسطاط نحو خمس قيساريات كانت من أكبر المراكز لتصنيع وتجارة الأقمشة والألبسة[(78)]وقد قدر بولشاكوف حجم المدينة (طولها من الشمال إلى الجنوب 5000 وعرضها من1400-1800 متراً [79]لقد بقيت الفسطاط مزدهرة عمرانياً و اقتصادياً حتى أواسط القرن الثامن ، وبانتقال الخلافة للعباسيين تم بناء مدينة مجاورة للفسطاط أطلق عليها(العسكر) لتحل محل الفسطاط [(80)].حتى جاء ابن طولون الذي ضمن خراج مصر له و لأسرته لمدة ثلاثين عاماً، ففكر ببناء مدينة جديدة تخلد اسمه و أمجاد عائلته أسماها (القطائع).

2-1-3- بغداد:استهل الخليفة أبو جعفر المنصور بداية عهده في الخلافة العباسية ببناء مدينة بغداد لتكون عاصمة الدولة الجديدة، فأختار موقعها لتتوسط المسافة بين دجلة والفرات، فبناها على مساحة تُقدر بنحو 4 فراسخ (20كم2 تقريباً).في حين قدر مساحتها بولشاكوف بنحو(6965) هكتاراً [(81)]كانت بغداد مدينة رائعة الجمال والتنظيم وفريدة جداً في بنائها، فقد بنيت على شكل حصن منيع، كمدينة بيضاء مستديرة الشكل، يحيط بها سور مرتفع من كل النواحي، ويقف الحراس على الأبواب وفوق الأسوار يحرسونها، وكان للمدينة اثنا عشر باباً تُقَفل في الليل، كل باب منها يطل على جهة لتأمين الدفاع والمؤن للمدينة، وتم وصل المدينة بشبكة من الطرق البرية والنهرية

---

[76]- عبد الرحمن حميدة, أعلام الجغرافيين العرب,دمشق ,1969 ,ص262

[77] -ناصر خسرويه,كتاب السفرنامة,موسكو-لينيغراد(بطرسبورغ)باللغة الروسية,,1933 ص50

[78] - شحاته عيسى ,تاريخ القاهرة,القاهرة,1960 ,ص 17-18

[79] -بولشاكوف,أوليغ,غ.المدينة في الشرق الادنى في العصر الوسيط(القرن السابع-القرن الثالث عشر) العلاقات الاقتصادية-الاجتماعية,موسكو,1984,باللغة الروسية, ص195

[80] - **كارل بروكلمان,تاريخ الشعوب الإسلامية, ط4 , بيروت,1974,ص 22**

[81]-بولشاكوف,أوليغ,غ.المدينة في الشرق الادنى في العصر الوسيط(القرن السابع-القرن الثالث عشر)العلاقات الاقتصادية-الاجتماعية,ص168

تصلها بجميع أطراف الإمبراطورية.يتوسط المدينة الجامع وقصر الخليفة والدوائر الحكومية، وقد بنيت الأسواق في وسط المدينة، وحوله تتوزع الأحياء، إذ تم تقسيم الأحياء إلى 25حياً على عدد القادة الذين يتبعون للمنصور. وكان في المدينة حسب تقديرات مؤرخ ذلك العصر ابن الفقيه حوالي 60 ألف حمّام عام، ومثل هذا العدد من المساجد، كما وصل عدد سكانها آنذاك إلى 500ألف نسمة.وبنى المنصور أسواقاً ضخمة، وعدداً كبيراً من الحوانيت للإيجار كانت تحمل له سنوياً 12 مليون درهماً[82]

2-1-4-سُرَّ مَن رأى (سامراء):كانت مدينة سامراء نموذجاً آخراً لمدن- المعسكر، في العراق في العصر العباسي، وقد بناها المعتصم الذي بدأت خلافته عام 842م، فاستكثر من الموالي واستخدام الجيش المأجور من عبيد الشراء بدلاً من المحاربين الأحرار، خشية أن ينقلب أقربائه على حكمه، وعندما لم تعد بغداد تتسع لهذا العدد الضخم من الموالي، الذي وصل حسب تقديرات المؤرخين إلى نحو 250ألف من عبيد الشراء، فقام المعتصم في البدء ببناء معسكر لهم على ضفاف دجلة ريثما أنجز بناء سامراء، التي قُدرت مساحتها بنحو 25 كم2 وتوسط المدينة قصراً محاطاً بالسور، وتم شق الأقنية لإمداد المدينة ومرافقها بمياه الشرب من دجلة مباشرة، وكان في المدينة إسطبلات ضخمة لمختلف سلالات الخيول تتسع لنحو160 ألف رأس خيل[83]لكن هذه المدينة الأسطورية بجمالها و تنظيمها و خدماتها ووسائل الراحة المختلفة فيها، ما لبثت تزدهر حتى أخذت تذوي وتنهار أثر بناء مدينة المتوكلية التي بناها المتوكل على بعد 20 كم من سامراء، وجرّ إليها المياه أيضاً من نهر دجلة لإمدادها بمياه الشرب عبر نهر اصطناعي بطول 60 كم وهو نهر(الجعفري) وبلغت كلفة بناء المدينة بكامل مرافقها نحو294مليون درهم (كان الدينار=25درهم) [84].لكن المتوكلية لاقت المصير ذاته لمدينة سامراء مع عودة مركز الادارة من جديد لمدينة بغداد في القرن العاشر.

2-1-5-واسط : بُنيت واسط، كمدينة وسط بين البصرة والكوفة من قبل الحجاج بن يوسف الثقفي، حيث اتخذها مقراً له حتى يستطيع الاتصال بسهولة بالبصرة والكوفة،بسبب الصراع بين

[82] – ابن الفقيه احمد بن محمد,مدينة السلام بغداد,مخطوط,تبليسي(جورجيا),1968م,ص15,62و102,106

[83] –اليعقوبي,كتاب التاريخ,.ج2,طبعة ليدن,1969 ,ص277

[84] –سيد علي,أمير, تاريخ التمدن الإسلامي,.بيروت, 1938ص243

الكوفة مركز الشيعة والبصرة مركز السنة ، وتشير المصادر أن الحجاج بناها من حساب خراج العراق خلال خمس سنوات، وقد قدرت تكاليف بناء المدينة بنحو 13مليون درهم([85])وكان نواة المدينة الجامع وقصر الوالي، وحول هذه النواة تتوزع أحياء الموظفين رجال السيف والقلم، ويتوسط المدينة السوق لإمداد المدينة بالمؤن وانتقل التجار والصيارفة والحرفيين لهذه الأسواق، لأماكن محددة بنيت لهم مسبقا في أسواق المدينة،ووضع الحجاج أوامره بأنه يكون لكل سوق صيرفي خاص([86])

2-1-6-القاهرة :بُنيت مدينة (القاهرة) عام 969م بعد دخول المعز لدين الله الفاطمي مصر قادماً من المغرب وأمر قائد جيشه جوهر الصقلي بإحراق مدينة (الفسطاط) عاصمة مصر بالقار والزيت(النفط) حيث بقيت الحرائق مشتعلة في المدينة عدة أيام، واتخذ موقعاً لبناء مدينة تخلد أسمه أسماها قاهرة المعز، التي أصبحت عاصمة الدولة الفاطمية ومن بعدهم عاصمة المماليك حتى القرن السادس عشر مع دخول العثمانيين المنطقة[(87)] . كانت مساحة المدينة تقدّر بنحو 340 فدان، وشغلت مساحة القصر وملحقاته نحو20%من مساحة المدينة و10% المؤسسات الحكومية، أما أحياء المدينة فبلغت نحو40 حياً ومساحة كل حي منها نحو 10 أفدنة شغلها رجال الجيش وقواده والمرافقين للمعز([88])وقد وصف القاهرة الرحالة ابن بطوطة الذي زار مصر في العصر المملوكي (القرن الرابع عشر) فتحدث عن وجود القيساريات والأسواق التجارية الضخمة، التي يعود قسماً منها للسلطان وبلغ عددها نحو 20ألف دكان و نحو 8 آلاف مسكن تؤجر لصالح الخزينة أو السلطان بنحو دينارين شهريا [(89)]، ويذكر ابن بطوطة أن السلطان أو الدولة كان لديها أسطولاً نهرياً يبلغ حجمه نحو30 ألف مركب تجوب نهر النيل ذهاباً وإياباً حاملة البضائع والحبوب من صعيد مصر إلى القاهرة[(90)].امتدت القاهرة فيما بعد لتشمل مساحة الفسطاط والعسكر والقطائع.في القاهرة تجتمع آثار الحضارات العمرانية المختلفة ، فهناك الأبنية والجوامع التي يغلب عليها الأفريقي السائد في المغرب، إلى جانب القلاع الأيوبية، والمعالم العمرانية الخاصة بالطراز

---

[85] – بحشل , إسلام بن سهل, تاريخ واسط , بيروت1986ص **38–39**

[86] –ياقوت الحموي ,قاموس البلدان,ج8,بيروت,1955,ص3811

[87] – عيسى شحاته, تاريخ القاهرة,القاهرة,1959,ص149-150

[88] – المقريزي, أحمد بن علي, كتاب الخطط,ج2 ,لبنان – الشياح,1959 ,ص 149-150

[89] – عبد الرحمن حميدة,أعلام الجغرافيين العرب,1969,ص262

[90] –ابن بطوطة,محمد بن إبراهيم أبو عبد الله شمس الدين(1304-1377) كتاب (الرحلة)بيروت,1964,ص37

المملوكي كمآذن والمدارس والخانات والبيمارستانات (المستشفيات).وجاء الطابع العثماني ليكمل هذه اللوحة، إضافة لأبنية وزخرفات من الطراز الأموي وأخرى من الطراز العباسي والطولوني لتجتمع في المدينة حضارات وثقافات هذه المراحل جميعاً، وساحاتهم وإسطبلاتهم وقلاعهم وفنونهم في متحف عمراني وثقافي حيّ وضخم؟!.

2-المدن التجارية:

عرفت الحضارة الإسلامية نمطاً آخراً من المدن التجارية أطلق عليها مدن (الثغور) وهي المدن الحدودية المطلة على منفذ تجاري بحري أو بري ، و(للثغر) أهمية من الناحية العسكرية الإستراتيجية كمركز لحامية عسكرية لصد الأعداء المتسللون من (الثغر)، وقد يشغل الثغر وظيفة مركز تجاري عالمي للتجارة العابرة البحرية مثل مدينة (البصرة و الإسكندرية) المصرية أو مركز تجاري بري له نفس الأهمية والطابع مثل مدينة (أنطاكية).وكان لمصر من الجنوب ثغر مع تجارة النوبة والحبشة يدعى(البجّة)، وقد جاء وصفها على لسان الرحالة الأوربّيين ، وهي مرفأ يؤمّه التجار والحجاج القادمين إلى مكة وفلسطين ([91])أما الثغور السورية الشمالية كما جاء في كتاب ابن الشحنة فكانت مدينة (ملاطي) مركزاً للصناعات الصوفية، وكان فيها في القرن الثاني عشر نحو 12 ألف نولاً تخصّ بأغلبها الدولة ([92]) ومن الثغور السورية الأخرى كانت(نصيبين) وكانت تدعى سابقاً-هليوبوليس-وقد شغل هذا الثغر وظيفة إدارية يقوم بجمع ضرائب الأراضي الزراعية من المحيط الزراعي، وقدّر الرحالة ابن حوقل حجم الحاصلات الزراعية من الحبوب من هذا الثغر على شكل ضرائب ترسل للخزينة بنحو10آلاف أكر بقيمة500 درهم للكر الواحد أي بنحو5 مليون درهم([93])أما الثغور المصرية فكان أهمها الإسكندرية كثغر على البحر المتوسط، وكانت تؤمن لخزينة الدولة ضرائب من التجارة نحو نصف مليون دينار سنوياً، وفي مصر أيضاً كانت مدينة (تينيس) مركزاً للصناعة النسيجية الفاخرة، وسقطنها نحو38 ألف نسمة معظمهو يعملون في صناعة النسيج والألبسة، وتحمل دخلاً

[91] -الإدريسي, محمد, رحلة المشتاق في اختراق الآفاق, مخطوط مجهول تاريخ الطبعة محفوظ في مكتبة حلب الوطنية منذ عام 1937م , ص49

[92] - ابن الشحنة ,أبو الفضل , تاريخ حلب ,دمشق ,1984م , ص16 . فيصل السامرائي , الدولة الحمدانية في حلب والموصل, بغداد ,ج2, 1973, ص 102-107

[93] - ابن حوقل, أبو القاسم محمد ,صورة الأرض,– بيروت , مطبعة دار الحياة,ب.ت, ص 194

سنوياً للسلطان يقدر بـ500ألف دينار([94]).ومن أهم المدن التجارية في العراق كانت مدينة (البصرة)، التي بنيت في القرن الأول الهجري بأمر من الخليفة عمر ابن الخطاب كمعسكر شتوي للجيش، في حين يعتقد بعض المؤرخين أن بناء البصرة يعود لأهدف إستراتيجية وعسكرية، كونها تقع في نقطة تقاطع الفرات مع دجلة على الخليج العربي، وذلك لمواجهة الفرس بالسيطرة على التجارة القادمة من الشرق الأقصى(الهند والصين)وتحويل التجارة من فارس إلى العراق لصالح خزينة بيت مال المسلمين[95]وقد أصبحت البصرة فعلاً أهم مركز تجاري بحري للتجارة العابرة عبر الخليج العربي من الشرق الأقصى إلى البحر المتوسط، وحلت محل مدينة (الأنبار) التي بناها الساسانيون،كان عدد سكان البصرة في نهاية القرن السابع نحو140ألف نسمة[96]ثم ارتفع عدد سكانها بفترة تقل عن نصف قرن ليبلغ في النصف الأول من القرن الثامن نحو600 ألف نسمة[97]

3-المدن صناعية : تشير المصادر التاريخية لازدهار صناعة الأقمشة في كل من مصر وبلاد الشام والعراق ، وقد بلغت شهرة هذه المراكز الآفاق، (كالموصل-الموسلين) (دمشق-دامسكو)(تنيس-تنيسي) (دبيق-دبيقي) ..الخ وسنتوقف عند المدن التالية:

3-1-الموصل:شهدت الموصل ثورة في الصناعة أطلق عليها المستشرقون (ثورة النسج)، وكانت تُعد من أكبر مراكز صناعة النسيج في العالم بين القرنين الثامن والثاني عشر ميلادي، بسبب الطلب الكبير على منتجاتها التي اشتهرت باسمها (Muslein) في أوربا والهند، فقدرت بعض المصادر إنتاجها الأسبوعي بنحو 375 ألف متر من القماش بأنواعه المختلفة(القطني والصوفي والحرير)، وكان يعمل في هذه الصناعة نحو 100ألف عامل يمثلون(ثلث سكانها) وعدد حوانيتها التي تزاول حرفة النسيج وتجارتها بحوالي48، 5 ألف حانوت، إلى جانب وجود نحو250مركب تعبر نهر الفرات ويحملون تجارتها إلى مناطق مختلفة من العالم([98])

3-2-دمشق :كانت دمشق تتناوب مع حلب في شغل المركز الأول للصناعة في سوريا، وكان في مدينة دمشق في (القرن الرابع عشر) نحو 12000 منشأة حرفية تنتج نحو100 نوع من

---

[94] – السيوطي جلال الدين,حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة,القاهرة,ب.ت.,ج1ص26-29

[95] – النبهاني, الشيخ محمد بن أحمد موسى ، البصرة أو (التحفة النبهانية), البصرة,1980 ,ص75

[96] – أحمد صالح العلي, البنى الاقتصادية والاجتماعية للبصرة(القرن الأول الهجري)بغداد,1935,ص72-74

[97] – أ . خربطلي . تاريخ العراق في العصر الأموي,القاهرة,1959 ص82-83

[98] – سعيد الدوه جي,المصل في العهد الأتابكي,الموصل, 1958,ص49

الأقمشة(10أنواع من الأقمشة القطنية، و20 نوعاً من الأقمشة الكتانية، 40 من ألأقمشة الحريرية، و20 نوعاً من الأقمشة الصوفية، 10 أنواع من الأقمشة الأخرى، إلى جانب دمشق كانت طرابلس قد اشتُهِرَت بصناعة الحرير وفيها نحو 1200مشغل حرفي للأقمشة الحريرية، إضافة إلى بعلبك التي اشتُهِرَت بصناعة بالأقمشة الصوفية العالية الجودة إذ لا يقل سعر الثوب البعلبكي عن30 دينار([99])وكانت المنشآت الحرفية النسيجية السورية في القرن العاشر تنتج لصالح دار الطراز ألبسة قدرت قيمتها بأكثر من (38مليون درهم) او مليوني دينار، في حين ما تنتجه مثيلاتها في مصر اقل من مليون دينار([100])

3-3-الاسكندرية: كانت مدينة (الإسكندرية) في مصر من بين أهم المركز الصناعية والتجارية على البحر المتوسط، حيث تراوح عدد الأنوال العاملة بصناعة النسيج فيها، في القرن الرابع عشر بين 12-14ألف نول تعمل في صناعة الأقمشة([101])

3-4-تنيس:كانت (تينيس)تُعد عاصمة العمل الحرفي في مصر، ومثال المدينة المتخصصة بصناعة النسيج، واشتهرت مدينة تنيس بصناعة الألبسة الفاخرة التي يصل ثمن الثوب منها إلى200 دينار ذهبي (تزن نحو700غ ذهب) وإذا كان الثوب موشى بالذهب فتصل قيمته إلى 1000دينار ذهبي([102])وكانت المنشآت تعود ملكيتها للدولة، ويعمل الحرفيون بأجر شهري، وتقدم لهم الدولة المواد الأولية والآلات، وتصدر قسماً من الإنتاج إلى الهند وأوربا.

3-أهم الصناعات في المدن الإسلامية :إلى جانب صناعة الألبسة والأقمشة، كانت المدن الإسلامية تصنع السجاد والتنجيد والتطريز وصناعة الألياف والحبال، إضافة لصناعة الأغذية بمختلف أنواعها وأهمها صناعة الخبز والمعَجَّنات والحلويات والعصائر وتجفيف اللحوم والخضار والفواكه وصناعة الأجبان والألبان والزيوت والصابون، والصناعات الزجاجية والخزفية ، والصناعات المعدنيةكصناعة الأدوات المنزلية النحاسية والفضية، والأسلحة(كالسيوف والدروع والرماح والخناجر)، والصناعات الخشبية والموبيليا وتطعيمها، ومواد البناء كالرخام والفسيفساء والمرمر،

[99] - Ziadeh N.A.Urban Life in Syia under the Early Mamluk,Beirut,1953,p.133

[100] -ارشيبالد لويس,القوى البحرية والتجارية في البحر الابيض المتوسط(500-1100م),بيوجرسي,1951م,ت.محمد شفيق غربال وأ.م.عيسى ,ب.ت.ص257-260-

[101] -الياهو آشتور,التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلدان الشرق الأوسط,ت.ا.عبلة,دمشق,1958م,ص390-391

[102] - ابن حوقل,ص143-146

إضافة لتصنيع الحلي والمجوهرات والأحجار الكريمة والتطعيم الخشب..الخ وهذه المهن تستخدم مهارات وتقنيات يدوية تعجز عنها الآن التكنولوجيا الحديثة، على سبيل المثال لا الحصر فإن منشآت بغداد قامت بتصنيع سجادة بناء على طلب السيدة الخُيزران زوجة الخليفة هارون الرشيد، وكانت هذه السجادة قطعة فنية نادرة جداً، سواء بحجمها الضخم وأبعادها، حيث صنعت كقطعة واحدة لا كمجموعة أجزاء يتم تجميعها وخياطتها، إضافة لتطعيمها بالرسوم والألوان و التوشيحات المختلفة لمختلف أنواع الحيوانات [103]

4-الحسبة: لابد أن نقف عند أهم سمة من سمات المدن الإسلامية ، التي تميزت بها في التنظيم لإدارة شؤون المدينة الإسلامية وهي الحسبة، وتقوم الحسبة بوظائف البلديات اليوم وتأتي الحسبة كمرتبة تلي القاضي من الوظائف الدينية والمدنية، ويُعد المحتسب الذي يعين من قبل السلطان مباشرة بمثابة رئيس البلدية أو عمدة المدينة اليوم، لكنه لم يكن يجلس في مكتبة، بل كان يقوم بنفسه ويرافقه مساعديه من النقباء وقائد الشرطة بالسهر على النظام في حياة المدينة ومراقبة الأمور وضبطها، وقد انتقلت الحسبة، ووظيفة قاضي القضاة من المدن الإسلامية إلى المدن الأوربية في مرحلة متأخر من التاريخ الأوربي الوسيط، فالمحتسب يعتبر الشخصية الثالثة في المدينة بعد الوالي وقاضي القضاة ، ويتمتع باستقلالية كبيرة في عمله، وهي السهر على تطبيق الشريعة الإسلامية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأشراف على سير الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، وتأمين تموين المدينة وسلامة التقيد بالقواعد والقوانين المفروضة في التجارة والصناعة، وضبط الموازيين والمكاييل ، والإشراف على تطبيق النظام ، والنظافة وأمور الصحة العامة، والخدمات في المدينة مثل تأمين مياه الشرب والإنارة وترحيل القمامة والصرف الصحي، وقمع المخالفات والخلل الموجود فوراً بمساعدة قائد الشرطة، وكان للمحتسب مساعدين من العرفاء على معرفة دقيقة بأحوال المهن والصنائع والتجارة ، وكان لكل مهنة في المدينة عريف، يلم بأمور المهنة، وكان العرفاء الكبار أو النقباء يسيرون مع المحتسب في الأسواق، ولهم مساعديهم ، فيتجولون في المدينة ليقمعوا المخالفات، أو التلاعب والغش بالموازين والمكاييل والأسعار ، إلى جانب ذلك يقوم هذا الجهاز بتقدير الممتلكات والإنتاج الحرفي وفرض الضرائب المستحقة عليها للخزينة ، وضرائب المبيعات والتجارة ، وكان قائد شرطة المدينة يمد المحتسب بالقوة اللازمة إذا اقتضت الضرورة لقمع المتمردين وعقوبتهم، أو

[103] – الأبشيهي شهاب الدين ,المستطرف من كل فن مستظرف,القاهرة ,ج1 ,1911 ,ص 251

سحبهم إلى السجن ريثما يحاكموا أمام القضاء المختص[104]، وقد أحصى ابن بسام المحتسب عدد النشاطات الاقتصادية التي يشرف عليه المحتسب في دائرته مثلاً نحو 118نشاطاً اقتصادياً منها 50 مجالاً خاصاً بالعمل الحرفي[105]وهذا العدد الكبير من المجالات والأنشطة المتعددة يدل على مستوى التطور المدني، وتنوع الحياة الاقتصادية والاجتماعية الذي بلغته المدينة الإسلامية، ومستوى تطور الحياة المدنية المبكرة والتطور الثقافي والاجتماعي والأخلاقي

5-السفاتج:من المؤشرات المهمة على تطور النظام المالي والمصرفي في المدن الإسلامية، كان شيوع نظام الدفع بالسفاتج.فقد أدى تطور الاقتصاد والتجارة في المدن الإسلامية، إلى ظهور طريقة مالية في الدفع لم تشهدها أوربا إلا في عصور متأخرة، وهي الحوالات المصرفية، والسفاتج هي وسيلة يتمّ فيها الدفع والتحويل للأموال من أي ولاية إسلامية إلى ولاية أخرى على امتداد الدولة الإسلامية، سواء في تحويل خراج الولاية إلى الخزينة المركزية ، كما هو الحال في إشارة الرحالة ناصري خسرو على اعتماد السفاتج في مدينة البصرة عام 1051م [106] أو كما يصف المؤرخ مسكويه استخدام هذه الطريقة في تحويل خراج سوريا ومصر في القرن العاشر، بأنها(طريقة مأمونة ومكفولة للدفع، وهي في مأمن عن متناول قطاع الطرق، كما لو كانت نقداً محمولاً)[107]وكانت جباية الولايات تحول إلى دمشق عاصمة الأمويين ، ومن بعدها بغداد، بأسلوب السفاتج، وكان الإخشيديون ايضاً يحولون خراج مصر لبغداد بهذه الوسيلة- كما يصفه مسكويه-كأسلوب مأمون وبعيد عن أيدي اللصوص([108]) وفي التجارة شاع استخدام السفاتج ، وكان بموجب هذه السفتجة ، يستطيع التاجر البيع والشراء والتعاقد مع تاجر آخر ويحول له سفاتج قيمتها ملايين الدراهم والدنانير على مسافة قد تستغرق عدة أيام ، ويشير أبن حوقل لتحويل بالسفاتج لأحد التجار المغاربة في القرن العاشر بموجب مبلغاً بلغت قيمته 42 ألف دينار[109].وقد أتاحت هذه الوسيلة

104 - ثلاث رسائل في الحسبة و المحتسب ,علق عليها بروفنسال,القاهرة,1955,الفصل 3-16

105 -ابن بسام المحتسب,نهاية الرتبة في طلب الحسبة,طبعة بغداد,1968م

106 -,ناصر,خسرويه, السفرنامة, السفرنامة,باللغة الروسية,موسكو,1953,ص186

107 - مسكويه, أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب,تجارب الأمم,مجلد 2,ج2, القاهرة,1014,ص 264

108 -مسكويه ابو علي بن محمد(القرن الحادي عشر),كتاب تجارب الأمم,الجزء الثاني,نشره هـ.ف.أموروز,القاهرة,1914,ص261

109 -ابن حوقل, صورة الأرض,ص96

إمكانية لعقد صفقة بين تاجر في شمال أفريقيا وآخر في الهند أو فارس أو آسيا الوسطى مثلاً ليتمّ الدفع والتحويل لصاحب العلاقة، عبر وكالات مالية كالمصارف اليوم؟ هذا الأمر أثار دهشة بعض المستشرقين مثل: بولشاكوف ، بروكلمان ، عيساوي ، إ. آشتور، غويتن للحديث عن بعض العلاقات الرأسمالية ، التي بدأت بالظهور في اقتصاد المدن الإسلامية في الشرق الأوسط في أواخر الخلافة العباسية؟! فيقول بولشاكوف مثلاً : يبدو ان نظام الحوالات او الصك بدأ مع خلافة عمر بن الخطاب وانتشر نظام السفاتج بين القرنين التاسع والعاشر كوسيلة سهلة لتحويل الضرائب من الولايات، فقد شهدت مصر في القرن الحادي عشر تجارة مصرفية بكل ما لهذه الكلمة من معنى[110]

6-السلطة القضائية: ذا كان المجتمع الغربي يقدس القانون واستقلالية القضاء، فإن المدن الإسلامية كان تفخر بالقضاء المستقل ، وبنظامها القضائي الدقيق والمتخصص، وتتألف السلطة القضائية من المحاكم المدنية ويرأسها قاضي القضاة ، وهو الذي يعين القضاة في المحاكم ، ويجب أن يكون القاضي مدني فقيه مُلم بأحكام الشريعة الإسلامية في أمور المعاملات(المذهب الحنفي مثلاً).وتعتبر السلطة القضائية هي أعلى سلطة في الدولة وتستطيع أن تحاكم جميع موظفي الدولة من الوزير وانتهاءً بالمواطنين العاديين.وهناك المحاكم العسكرية و يرأسها قاض قضاة العسكر، وتختص هذه المحاكم بأمور رجال الجيش، وكل ما يتعلق بحقوقهم وواجباتهم ، وأمورهم المدنية والعسكرية ، والفض في المنازعات بين العسكريين على اختلاف الرتب، ويجب أن يكون قاضي العسكر ملماً إلماماً كافياً بأحكام القضاء والفقه الإسلامي، ويعين قاضي قضاة العسكر من الوالي أو السلطان مباشرة.أما المفتي العام فيرأس المفتي العام مجلس الإفتاء الذي يضم علماء وفقهاء في جميع المذاهب الفقهية ، ويفض مجلس الإفتاء في المسائل التي يختلف حولها الفقهاء والقضاة، ومن صلاحيات المفتي العام إصدار الأوامر بتعيين الخليفة أو خلعه وإحالته إلى القضاء؟وحصل هذا الأمر مراراً في المراحل المتأخرة في الدولة العباسية مع ضعف سلطة الخليفة التي انتقلت ليد الموالي والأتباع من عبيد الشراء.إضافة إلى ذلك هناك المحاكم الخاصة بأهل الذمة حيث تركت للرعايا غير المسلمين الحرية بتنظيم المحاكم الخاصة بهم، التي تنظم وفق أحكام شريعتهم الدينية، فكان لليهود محاكمهم الخاصة،

[110] – بولشاكوف,أوليغ,غ.المدينة في الشرق الادنى في العصر الوسيط(القرن السابع-القرن الثالث عشر) العلاقات الاقتصادية-الاجتماعية,ص205

وللنصارى محاكم دينية تشرف عليها الكنيسة للفصل في أمور الرعايا المسيحيين.ولا ننسى مجالس المظالم حيث كانت تعقد محاكم علنية في الشارع أو في مكان عام ويجلس فيها الخليفة أو يكلف أحداً ينوب عنه من الوزراء أو كبار رجال الدولة ويجلس معه قاضي القضاة وقائد الشرطة ، وأحياناً قادة الجيش أو قضاتهم إذ تطلب الأمر ذلك، وذلك لتلقي المظالم أو الشكاوى من المواطنين على تجاوزات رجال الدولة من مدنيين أو عسكريين بغض النظر عن مكانتهم واختلاف مراتبهم أو درجة حصانتهم، حتى لو كانت الشكوى على الوزير أو القاضي أو الوالي، واختصاص هذه المحاكم رد المظالم لأصحابها وفض المنازعات خارج دوائر المحاكم، سواء فيمابين رجال الدولة أو بين رجال الدولة والمواطنين.وكانت المظالم تعقد حسب الحاجة مرتين في الشهر أو العام.

6-التعليم والخدمات : لعل البحث لا يستوفِ حقه دون الحديث عن العلم والإنفاق على التعليم والمدارس في المدن الإسلامية، فقد بنيت المدارس من قبل الخلفاء والأمراء والمقتدرون لتعليم القرآن والحديث والعلوم الدنيوية، أو المدارس المهنية لتعليم المهن والصناعات الأخرى، وهي مدارس داخلية ، يتلقى فيها الدارسون الرعاية ويأخذون مرتبات، ويذكرُ على سبيل المثال المؤرخ الدمشقي (محمد كرد علي) أن عدد المدارس في مدينة دمشق لوحدها بلغ نحو344 مدرسة ، ونحو 7 مدارس تحفيظ القرآن في القرن الثاني عشر([111]) ناهيك عن المدارس، كانت المساجد مراكز لطلب العلم، وأنتشرت الحمامات العامة، ففي مدينة الفسطاط كان هناك 26 الف مسجد ونحو 8 آلاف شارع و1170 حمام، وفي بغداد ايام المأمون كان فيها نحو من 60 الف حمام، ويدل هذا العدد على ضخامة حجم سكان المدينة التي كانت عدد سكانها نحو من مليون ونصف([112]) ، إضافة لانتشار السقائين في المدينة ووسائل النقل للركاب (المكارين) ، فقد قدر ناصري خسرو في كتاب(السفرنامة) عدد السقائين الذين يجوبون شوارعها نحو 200 الف يحملون الماء على الجمال، وحسب ابن بطوطة ورحلته في القرن الثامن هجري، بلغ عدد (المكارين) الذين يستخدمون الحمير للنقل بالأجرة نحو 20 الف مكاري في مدينة القاهرة ، التي اصبحت اربع أضعاف الفسطاط من حيث المساحة وكان عدد سكانها نحو من مليون في العصر المملوكي([113])، وفي بغداد ذكر اليعقوبي

[111] -كرد علي,محمد, خطط الشام,,ج6,دمشق,ذ927, ص67, 130
[112] -زيدان,جرجي, التمدن الاسلامي,ج2, ص188
[113] -مصطفى شاكر, المدينة الاسلامية, ج2,ص36

في (البلدان) أن عدد الحمامات في بغداد كان 30 الف ومساجدها نحو 10 آلاف وعدد الدروب والسكك 6 آلاف درب ([114]).

الخاتمة: ليست قضية الحضارة في الاسلام مثار شك عند عدد من المستشرقين والدارسين للتاريخ الإسلامي دراسة موضوعية، ولكن مشكلة التشكيك في مدنّية هذه الحضارة هو نزعة صليبية تعود إلى عصور مبكرة في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية ، التي زعمت لنفسها أن الارض مركز الكون، وأن الكنيسة هي مركز التفكير ومصدر السلطة بالتفويض الالهي، لا بل ذهبت أبعد من ذلك بالادعاء أن المسيح روميا وأن المسيحية الرومية هي الأصل، وقد درج الفكر الغربي بشكل مماثل لاعتبار أوربا والغرب هي مركز الكون ومنبع الحضارة والفكر والإبداع، وباقي الشعوب همجية وبربرية، ويجب قياس وقائع التاريخ الانساني بمقياس حضارة الغرب الآخذة بالأفول، هذه الحضارة بنيت على الفهم المادي وعلى النزعة البراغماتية والفردانية، التي تقدس الفرد، كما يصورها كريدر إذ يقول (لا يوجد مجتمع متطور بدون فردانية إنسانية) وتتسع هذه العلاقة في الفكر الغربي ليصبح مذهب الفردانية Individualism بمثابة رافعة أيديولوجية لتطور المجتمع المدني (البرجوازي) والتأسيس اقتصادياً وسياسياً للرأسمالية.ويرى (كريدر) أن صيرورة الفردانية حدثت تاريخياً من الأعلى ومن الأسفل وإن ديالكتيك التطور قد مر من فردانية البعض إلى فردانية المجموع([115])وهذا الشكل من التطور الاجتماعي هو الشكل المناقض تماماً للمجتمعات (الاستبدادية الآسيوية) التي لم تعرف الفردانية ، ولا حقوق الفرد، إذ بقيت هذه الفردانية مُغيّبة ومُهمشّة، مندمجة وغير مُتمايزة، ومُرغمة على الاندماج والتلاشي في حياة الجماعات الأوسع بقوة السلطة الشمولية المطلقة ومؤسساتها.من هنا جاء تقديس الفرد وتقديس الحرية الفردية بشكل يجعل من هذا المبدأ عقيدة بنت عليها أوربا والمجتمعات الغربية حضارتها.لدرجة بات التباعد بين الشرق الذي يعارض هذا المبدأ، عالماً مناقضاً وبعيداً عن الحضارة.وإذا كان الأمر يتعلق بالحضارة الإسلامية، فإن التشريع الإسلامي لم يلغ الحقوق الفردية المدنية إذا لم تتعارض مع العقيدة لكنه لا يقر بالحرية المطلقة غير المنضبطة لإحكام الشريعة الإسلامية ولا بالفردانية المطلقة لدرجة الأنانية بل على العكس من ذلك يحض على التمسك

[114] – اليعقوبي,احمد بن ابي يعقوب , البلدان, دار الكتب العلمية,بيروت,,ص43

[115]– Krader.L.the Asiatic Mode of Production, Sources, Development and Critique in the Writings of Karl Marx, Assen, 1975, p.324-325

بالجماعة والانتماء للجماعة الإسلامية الأكبر وهي الأمة.وقد يكون مفيداً أن الحض على العلم في الاسلام جاء في أول رسالة للوحي وهي (أقرأ) لتكن القراءة والكتابة وطلب العلم عماد الأمة الإسلامية ومصدر قوتها، وجاء تكرار الأخلاق في القرآن والأحاديث النبوية للتأكيد على رسالة الاسلام بأنها رسالة أخلاقية للإنسانية، فلم يحصل أن تم إكراه أحد على ترك دينه من أهل الذمة والديانات الأخرى، وشغل أهل الذمة مراتب مهمة في الجيش والإدارة والتجارة والصناعة، دون اقصاء أو الغاء بسبب الدين، وهو ما حدث سابقاً ويحدث الآن في المجتمعات الغربية.

قائمة المراجع والمصادر

–مصادر التاريخ الإسلامي

1–ابن بطوطة، محمد بن إبراهيم أبو عبد الله شمس الدين(1304–1377) كتاب (الرحلة)بيروت، 1964

2–ابن حوقل، أبو القاسم محمد ، صورة الأرض، بيروت ، مطبعة دار الحياة، ب.ت،

3–ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، المجلد الاول، الطبعة الثانية، بيروت، ب.ت

4–ابن الشحنة ، أبو الفضل ، تاريخ حلب ، دمشق ، 1984م ، ص16 .فيصل السامرائي ، الدولة الحمدانية في حلب والموصل، بغداد ، ج2، 1973

5–ابن الفقيه احمد بن محمد، مدينة السلام بغداد، مخطوط، تبليسي(جورجيا)، 1968م

6–مسكويه ابو علي بن محمد(القرن الحادي عشر)، كتاب تجارب الأمم، الجزء الثاني، نشره ف.أموروز، القاهرة، 1914.

7– بحشل ، إسلام بن سهل، تاريخ واسط ، بيروت1986

8–ياقوت الحموي ، قاموس البلدان، ج8، بيروت، 1955

9– السيوطي جلال الدين، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، القاهرة، ب.ت.، ج1

10–الأبشيهي شهاب الدين ، المستطرف من كل فن مستظرف، القاهرة ، ج1 ، 1911

11–الإدريسي، محمد، رحلة المشتاق في اختراق الآفاق، مخطوط مجهول تاريخ الطبعة محفوظ في مكتبة حلب الوطنية منذ عام 1937م

12– المقريزي، أحمد بن علي، كتاب الخطط، ج2 ، لبنان – الشياح، 1959

13-مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب، تجارب الأمم، مجلد 2، ج2، القاهرة، 1914م

14-النبهاني، الشيخ محمد بن أحمد موسى ، البصرة أو (التحفة النبهانية)، البصرة، 1980

15-اليعقوبي، احمد بن ابي يعقوب ، البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، ب.ت

-المراجع

16-ارشيبالد، لويس، القوى البحرية والتجارية في البحر الابيض المتوسط(500-100م)، بيوجرسي، 1951م، ت.محمد شفيق غربال وأ.م.عيسى ، ب.ت.

17-آشتور، الياهو، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلدان الشرق الأوسط، ت.ا.عبلة، دمشق، 1958م

18-بارتولد، فاسيلي ، تاريخ الحضارة الإسلامية، ت.حمزة طاهر، دار المعارف، القاهرة، 1952م

19-بروكلمان، كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، ط4 ، بيروت، 1974

20-برنار ، لويس، أزمة الاسلام الحرب الأقدس والإرهاب المدنس، ت. حازم مالك محسن، بغداد، 2013

21-جب، هاملتون، دراسات في حضارة الاسلام، ت.احسان عباس وآخرون ، بيروت ، الطبعة الثالثة، 1979م

22-جب، هاملتون، التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى، دمشق، دار الكتاب، ب.ت.

23-حميدة، عبد الرحمن ، أعلام الجغرافيين العرب، دمشق ، 1969

24-خالد، حسن (مفتي لبنان سابقاً)، مجتمع المدينة، بيروت، 1968

25-خربطلي، علي ، تاريخ العراق في العصر الأموي، القاهرة، 1959

26-الداوي، عبد الرزاق، في الثقافة والخطاب عن حرب الثقافات، حوار الهويات الوطنية في زمن العولمة، المركز العربي للأبحاث والدراسات، بيروت، 2013

27-الدوه جي ، سعيد، الموصل في العهد الأتابكي، الموصل، 1958

28-زيدان ، جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، الجزء الأول مؤسسة هنداوي للثقافة والنشر، القاهرة، 2012

29-السامرائي، محمد، حضارة المدينة في عهد الرسول، الموصل، 1982
30-سيد علي، أمير، تاريخ التمدن الإسلامي، .بيروت، 1938
31-شاكر، مصطفى، المدينة في الاسلام حتى العصر العثماني، الجزء الأول والثاني ، الكويت، 1988
32-الشامي،ديب، الحضارة والنظام العالمي، دار الإنسانية، بيروت، 1995م
33-شحاته، عيسى ، تاريخ القاهرة، القاهرة، 1960
34-الطويل، توفيق، في تراثنا العربي الإسلامي، سلسلة عالم المعرفة (87)، الكويت، مارس 1985م.
35-طه، عزمي، قرعوش السيد، الثقافة الإسلامية، دارا لمنهل، عمان، 2014
36- عارف، نصر محمد، الحضارة – الثقافة – المدنية: دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، 1994
37- عاشور، سعيد عبد الفتاح، (أوربا في العصور الوسطى)، ط1، ج4 ، القاهرة، 1963
38-العدوي، ابراهيم، و نايف عيد السهيل، الحضارة العربية الإسلامية، مؤسسة الشراع العربي، بيروت،1994م
39-العلي، أحمد صالح، البنى الاقتصادية والاجتماعية للبصرة(القرن الأول الهجري)بغداد، 1935
40-العربي، ابن داوود –باية ، بوزغاية، إشكالية العولمة والهوية الثقافية، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قاصدي بورباح ، بورفلة، عدد خاص، الملتقى الدولي حول الهوية والمجالات الاجتماعية في ظل التحولات السوسيو–ثقافية في المجتمع الجزائري، ب.ت
41- عيسى ، شحاته، تاريخ القاهرة، القاهرة، 1959
42-كاريزرس ، مايكل ، لملذا ينفرد الانسان بالثقافة، الثقافة البشرية نشأتها وتنوعها، ت.شوقي جلال، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، عالم المعرفة، العدد 229، الكويت، يناير، 1998م
43-كاهن، كلود، تاريخ الشعوب الإسلامية منذ ظهور الاسلام حتى بداية الامبراطورية العثمانية ، ت .بدر الدين قاسم، بيروت، 1974
44-كرد علي، محمد، خطط الشام، ، ج6، دمشق، 1927م

45-لبيب، الطاهر، سيسيولوجيا الثقافة، ط3، دار ابن رشد، عمان، 1986
46-لوبون،، غوستاف حضارة العرب، نقله إلى العربية: عادل زعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، بدون تاريخ،
47-لوك، جون، رسالة في التسامح ت. منى ابو سنة، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، 1999
49-الليبي، الطاهر ،سوسيولوجيا الثقافة، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية،1978
50-متز، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع هجري أو عصر النهضة في الاسلام، ت.محمد عبد الهادي ابو ريده، القاهرة 1947
51- مصطفى، شاكر، المدينة في الاسلام حتى العصر العثماني، الجزء الأول، الكويت، 1988
52-مطبقاني، مازن بن صلاح، الاستشراق الاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، دراسات تطبيقية على كتابات برنار لويس، الرياض ، 1995
53-ويل ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة: زكي نجيب محمود، القاهرة، 1973م، ج1،
54-هنا،غانم، فلسفة الحضارة ، جامعة دمشق، كلية الآداب، 1979

-المراجع باللغة الروسية

55-بكشانين، أ.أ.مراحل التطور الأساسية للمدينة الصينية في العصور الوسطى(زاروبيجني فستوك) قضية التاريخ الاقتصادي للمدينة، موسكو، 1991
56-بلياييف، أي، أ، العرب والإسلام (تاريخ الخلافة العربية –الدولة الأموية والعباسية)، الطبعة الثانية، موسكو، 1966
57-نفتال، أي .، محاضرات في القانون الإسلامي، سانت بطرسبورغ ، 1886
58 -بولشاكوف، أوليغ، غ.المدينة في الشرق الادنى في العصر الوسيط(القرن السابع-القرن الثالث عشر) العلاقات الاقتصادية-الاجتماعية، موسكو، 1984، باللغة الروسية
59-بلوشاكوف، أوليغ، ، تاريخ الثقافة العربية بين القرنين الخامس والخامس عشر، موسكو(الترجمة العربية) ، 1989
60-بيرنيه، فرانسوا، آخر التحولات السياسية في دولة المغول الأكبر في الهند(رحلة إلى الهند)،الترجمة الروسية، ب.جوخوفيتسكي ، جتوماركي، م.توما، موسكو، 1936
61- خسرو، ناصر، كتاب السفرنامة، موسكو-لينيغراد(بطرسبورغ)باللغة الروسية، 1933

62- سميث، آدم. أبحاث حول طبيعة وأسباب ثروة الأمم (الطبعة الروسية) ترجمة مجموعة باحثين برئاسة تحرير: ف. نيزنوف، موسكو،1962

63-جونز،ريتشارد،المؤلفات الاقتصادية الكاملة (الطبعة الروسية)،لينيغراد،1937

64-فيبر، ماكس، المدينة، (باللغة الروسية)، بطرسبرغ،1923

65-ماركس، كارل وفريديريك انجلز ، الأعمال الكاملة (الطبعة الروسية الثانية) ب ت، المجلد28، ج4

66-مالتوس، توماس روبرت، مدخل إلى قانون السكان (الأعمال الكاملة باللغة الروسية)، ب.م 1868،

67-مونتسكيو،شارل لي،مؤلفات مختارة (باللغة الروسية)،نقله عن الفرنسية م.ب.باكسين ،موسكو 1955،

-المراجع الانكليزية والفرنسية

68-Caweneuve ،. J. ، Sociologie du rite ، éd. PUF ، Coll. .Sup. 1971

69- Forster .w. The Embassy of Sir Thomas Roe 1615 – 1619 ، Oxford ،1926

70-Goitein ،S.D.The Rise of the Middle Eastern Bourgeoisie in Early Islamic Times ، "Studies in Islamic History and Institution ،LEIDEN ،E.J.BRILL ، 1968

71-Issawi ،CH. An Economic of Middle East and North Africa ،London ،1982

72- Issawi ،CH. ،The Economic of Middle East and Turkey 1800-1914 ،London، 1981

73-Hartshon ،T.A.&Dent ،B.D. ،Interpreting the city ،An urban Geography ، Jogn wiley&sons ،Newyork ،1980 ،.

74- Hourani.A.N.Introduction To Islamic city in the light of Recent Research: the Islamic City Acolloquim ، Ed .by: A.Hawrani and S.M Stern ، Oxford ، 1970

75-Krader.L.the Asiatic Mode of Production ، Sources ، Development and Critique in the Writings of Karl Marx ، Assen ، 1975

76-Lapidus ،Ira ،Marvin.Muslim Cities in the latter middle ages ،Cambridge ،Massashusetts ،1967

77-Grawitz; Madeline "Lexique des sciences sociales" ، Deuxième édition Dallols، Paris ، 1983

78-*Middle Eastern* Cities: A *Symposium* on Ancient ، Islamic ، and Contemporary *Middle Eastern Urbanism*. Front Cover. Ira Marvin Lapidus ، California. University Pres.Los angelos ،1969 ،

79-Lapidus ،I ،M ،Muslim Urban Society in Mamluk Syria.: : the Islamic City Acolloquim ، Ed .by: A.Hawrani and S.M Stern ، Oxford ، 1970

80-Sapir.E ، Anthropologie ، éd. De minuit ، coll. Points 1967 R. BASTIDE ، Anthropologie appliquée ، Petite Bibliothèque Payot ، 1971

81- U.N. ،Department of Economic and social Affairs"Geowth of the world urban and Rural population ،1920-2000 ،"population studies ،44 ،1969

82-Ziadeh N.A.Urban Life in Syia under the Early Mamluk ،Beirut ،1953.